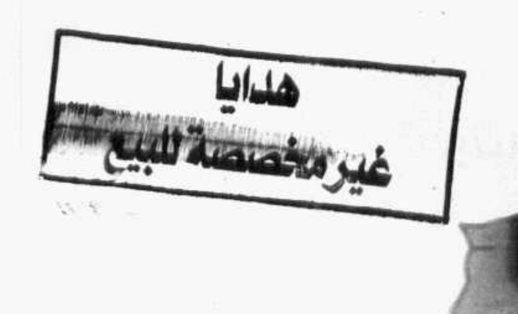


موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

التاريخ الحديث

٦

عصر النهضة الأوروبية

تأليف

أ.د. إسحق عبيد

كلية الآداب - جامعة عين شمس



تمثال لورنزو دى ميديتشى - مايكل أنجلو - روما

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



القديسة يوحنا... ليوناردو دافنشي

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفني
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
حسام حسين أنيس

٩٤٠,٢
اس ع ص

إسحق عبيد.
عصر النهضة الأوروبية/ تأليف إسحق عبيد. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦.
٨٨ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الحديث والمعاصر؛ ٦).
ببليوجرافية: ص ٨٥.
تدمك: ١ - ٢١٤٥- ١٠ - ٩٧٧.
١ -الحضارة العربية وأوروبا. ٢- الكشوف الجغرافية.
٣-حركة الإصلاح الدينى. أ - العنوان. ب - السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع:٨٧٩٩/ ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة

د

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



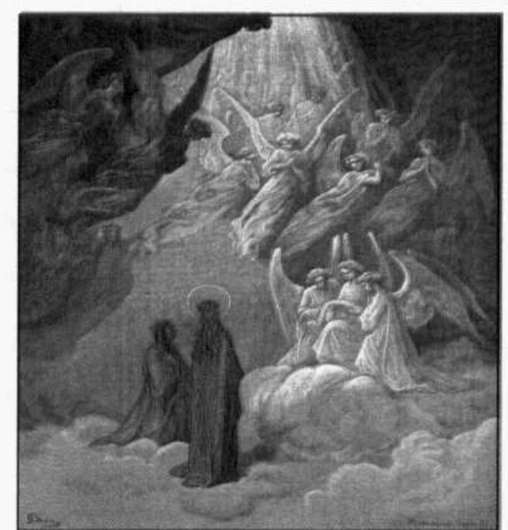


يعرض هذا الكتاب لعصر النهضة (الرينسانس أو الميلاد الجديد) فى أوروبا بعد الانعتاق من أغلال الإقطاع وبحور الظلام. . . ولقد كان للعرب والحضارة العربية الإسلامية فضل يعترف به الجميع فى تنوير العقلية الأوروبية بعد ترجمة شوامخ الفكر العربى إلى اللاتينية فى مختلف فروع المعرفة.

ولقد قدر لإيطاليا أن تقود ركب النهضة الأوروبية من خلال الحركة الإنسانية ، والتى وصلت آثارها إلى ما وراء جبال الألب لتطال فرنسا وألمانيا وإنجلترا. وقد شهد القرن الخامس عشر حركة الكشوف الجغرافية التى كانت فى واقع الأمر توسعاً أوروبيا إمبرياليا فى الشرق والغرب، حيث ثم البطش بالهنود شرقا وبالهنود الحمر غربا.

ولعل أهم حدث فى عصر النهضة هو حركة الإصلاح الدينى التى أشعل نيرانها مارتن لوثر، والذى قدر له ولأتباعه «البروتستانت» أن يدقوا المسمار الأخير فى نعش بابوية العصور الوسطى ومحاكم تفتيشها!





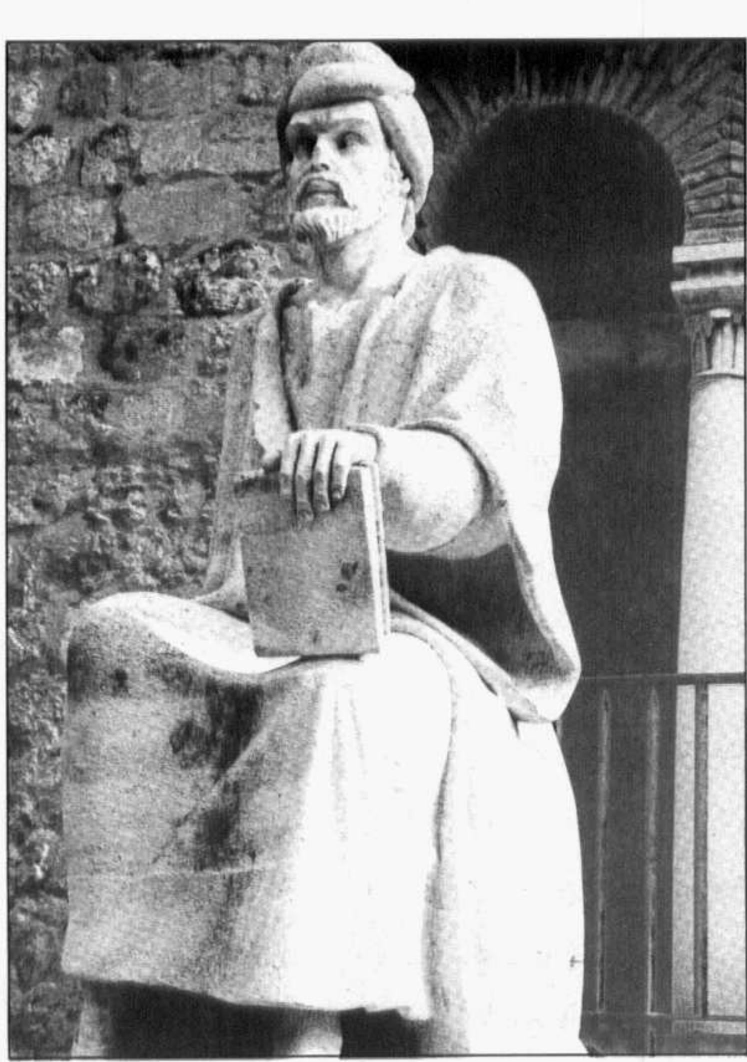
«ثُمَّ مضينَا . . دليلُ غُربَتِى
وأنا من وراء
نُسرعُ الخُطى . . وداعًا لمرِ الشقاءْ
وتلمسنا الطريقَ وكلانا
يُغالبُ الظُّلمةَ . . بأملِ الرجاءْ
فَلَقينا فوهةً . . تكشفُ للعينِ
عن أفقِ السماءْ
فبتنا نُسامرُ النجومَ
ترقصُ من عَلٍ
ولكأنهنَّ عذارى
يحترقنَّ من فرطِ الحياءْ»
(دانتى) بتصرف من المؤلف

"Lo Duca ed io per quel cammino ascoso
Entramo a ritornar nel chiaro mondo:
E Sensa cura aver d'alcun riposo
Salimmo suso, ei primo ed io secondo,
Tanto ch'io vidi delle cose belle
Che porta il ciel, per un pertugio tondo,
E quindi uscimmo a riveder le stelle"
(Dante)



الفصل الأول
شمس العرب تسطع على أوروبا

يعترف المفكرون الموضوعيون والمنصفون من أهل الغرب بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت صاحبة اليد الطولى فى إذكاء روح النهضة فى أوروبا، وفى إيقاظ بلدانها من أغلال الهرم الإقطاعى وبؤس القنية وإرهاب محاكم التفتيش، وفى أخذ مؤسساتها العلمية جنوبا وشمالا بالنهج العقلانى والفكر الحر الخلاق وسعة الصدر للرأى والرأى الآخر دون مصادرة أو إدانة.



تمثال «ابن رشد» فى إحدى جامعات إسبانيا

تؤكد الباحثة زيغريد هونكه فى كتابها «شمس الله تسطع على أوروبا» على حقيقة أنه فى سنة ٩٩٩م ارتقى عرش البابوية فى روما واحد من علماء عصره، بعد أن وضح لجميع الدوائر أنه مفكر مبدع



رحب الآفـاق، ولقد أمـضى هذا العـالم، واسمـه جـربرت من أوبلاك، بعض الوقت فى إسبانيا حيث تعلق بالعرب، وعـشق دراسة الرياضيات العربية والفلك ومختلف فـروع المعرفة الأخرى على يد أسـاتذة عرب فى الأندلس، ومن خلال ترجمات أعمال شوامخ الفكر العربى إلى اللسان اللاتينى. وعندما أصبح جربرت رأسا للكنيسة الرومانية باسم سلفستر الثانى كان «قد تعلم أشياء لم يكن أحد فى أوروبا ليحلم بها أو يسـمع عنها، وأهمها نظام الأرقام والأعـداد العربية، وهكذا فإن البـابا الرومانـى فى العام الأخيـر من القرن الـعاشر للمـيلاد صار يـحسب بالعربية».

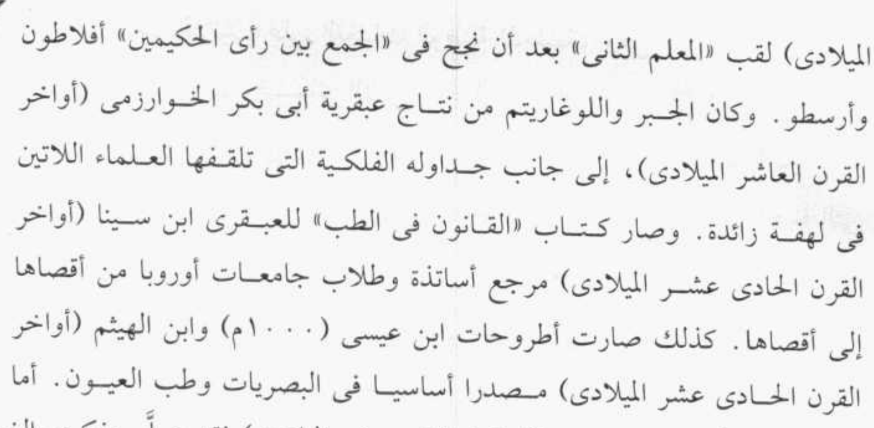
وتضيف هونكـه أن الحضارة العـربية المبكرة لم تأخذ عـن الحضارة الإغـريقية أو الحـضارة الهندية إلا بقدر ما أخـذ طاليس أو فيثاغورس من الحـضارتين البابلية والمصـرية. لقد طور العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق، وشكلوه تشكيلا جديدا، فالعرب فى الواقع هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمى القائم على التجربة.

ويشهد مؤرخ الطب الكبير نيوبرجر بأن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث الأقدمين الذين طالما اكتنفت أعمالهم شائبة الغموض وغياب التسلسل. وقد فضلهم الغربيون على غيـرهم، فأصبح العرب أسـاتذتهم الذين أخذوا عنهم مـعارفهم الطبـية أكثر مما أخـذوا عن كتب اليونان المبعـثرة المبتورة، وهكذا لم يكن هناك عالم واحـد من بين العلماء الأوروبيين إلا ومد يده إلى الكنوز العربيـة يغرف منها مـا يشاء الله له أن يغرف، وينـهل منها كما يـنهل الظمآن من الماء العذب، رغبة فى سد الثغرات التى لديه وفى الارتقاء إلى مستوى عصره.

لقد كان لجابر بن حيـان (القرن الثامن الميلادى) الفضل فى صك كلمة «الكيميـاء» لتتلقفها جميع اللغات الأوروبية بصيغتها العربية كما هى.

وأثرى الأصمعى (القرن الثامن الميلادى) التاريخ الطبيعى ببحوثه.

أما الكندى (القرن التاسع الميلادى) فكانت له إضافات مـبدعة فى البصريات وفى الفلسفة. وبات كتـاب أبى بكر الرازى (أواخر القـرن التاسع وأوائل العـاشر الميلادى) «الحـاوى فى الطب» مصــدر إرشـاد وإلهـام لأطباء الغـرب. واكتـسب أبو النصـر الفارابى (أواخـر القرن العـاشر



الميلادى) لقب «المعلم الثانى» بعد أن نجح فى «الجمع بين رأى الحكيمين» أفلاطون وأرسطو. وكان الجبر واللوغاريتم من نتاج عبقرية أبى بكر الخوارزمى (أواخر القرن العاشر الميلادى)، إلى جانب جداوله الفلكية التى تلقفها العلماء اللاتين فى لهفة زائدة. وصار كتاب «القانون فى الطب» للعبقرى ابن سينا (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) مرجع أساتذة وطلاب جامعات أوروبا من أقصاها إلى أقصاها. كذلك صارت أطروحات ابن عيسى (١٠٠٠م) وابن الهيثم (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) مصدرا أساسيا فى البصريات وطب العيون. أما الفيلسوف الأندلسى ابن رشد (القرن الثانى عشر الميلادى) فقد علَّم مفكرى الغرب اللاتين كيف يقرأون أرسطو، والأهم من ذلك أنه صالح للخاصة والعامة بين العقل والإيمان.

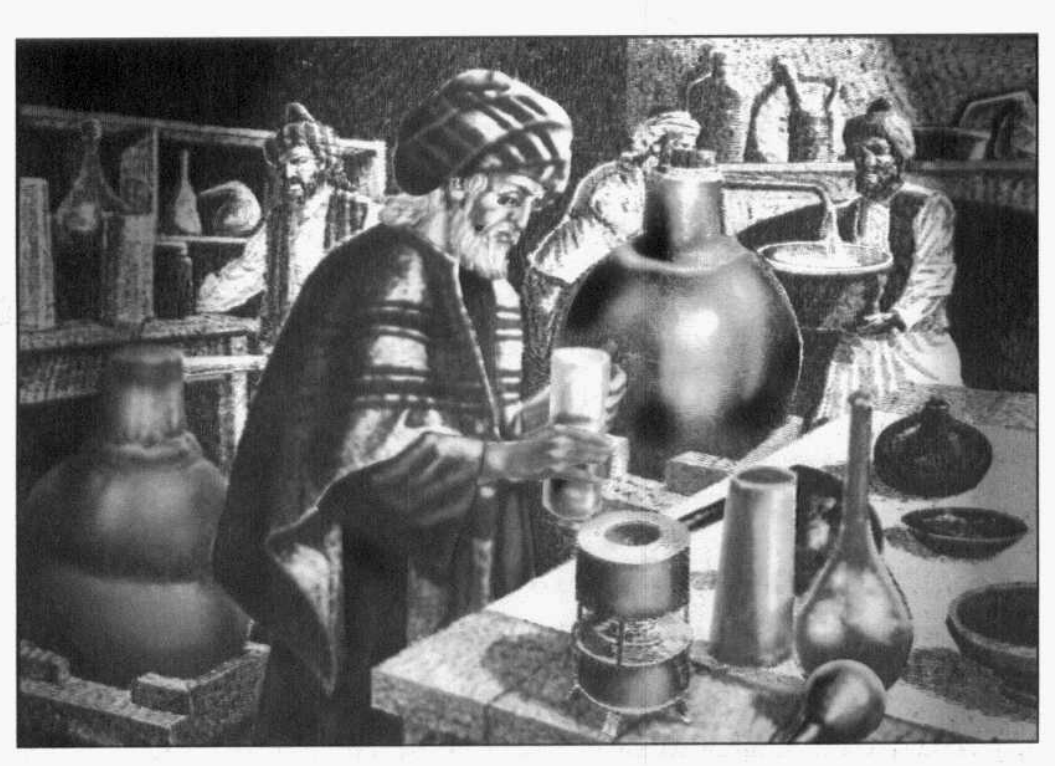
وتدين أوروبا فى خطوتها الجبارة من بحر الظلمات إلى الأفق الجديد إلى نفر من العلماء اللاتين الذين قاموا بترجمة هذه الأعمال العربية إلى اللسان اللاتينى، لغة العلم آنذاك؛ بدءًا بأبيلارد من باث ومرورا بيوحنا الإشبيلى، وروجر من هارفورد، وأرنولد السكسونى، ودون خوان مانويل، وبيرو دى لاڤينا، وليوناردو من بيزا، وهرمان الدلماشى، ورايموند من مرسيليا، وجيرارد من كريمونة، ومايكل سكوت، وبرنارد من بالرمو، وجاكوب من كابوا، حتى نصل إلى العالم الإنجليزى روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الذى يعترف - بعد أن درس ترجمة «البصريات» للكندى - بأنه «ينبغى على كل من يطلب العلم والحكمة أن يتتلمذ على أيدى العرب».

والحق أن العرب فى العصور الوسطى كانوا عباقرة العالم، وصارت اللغة العربية منذ القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العالم الراقى عند الجنس البشرى كله، حتى بات ضروريا لأى فرد فى الغرب الأوروبى كى يلم بثقافة العصر أن يتعلم اللغة العربية. فى ذلك الوقت من الزمان كان الغرب اللاتينى يتطلع إلى الانعتاق من أغلال الإقطاع وشراسة فرسانه، ومن جبروت قلاع ومعاقل الأرستقراطية المتبربرة التى كان يفاخر أدواقها وباروناتها بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة.

ولقد وفد التأثير الحضارى العربى على أوروبا من قنوات متعددة: من خلال الاحتكاك بالعالم العربى زمن الحروب الصليبية العدوانية على مقدرات ومقدسات شعوب الشرق الأدنى، ومن خلال بلاط فردريك الثانى فى صقلية؛ ومن ينابيع الفكر الإسلامى العربى فى بلاد الأندلس. وهكذا جاهد الغرب الأوروبى فى التحرر من استبداد السلطتين الزمنية والدينية، ومن

طغيـان اللسان اللاتينى على اللغـات الوطنية المحليـة، ومن سطوة أمراء الإقطاع والأساقفة على أبدان وضـمائر الناس. وصار الإنسان الفرد على أعـتاب النهضة سيد أفعاله دون حاجة إلى وصاية كهنوتية عليه، وأمسى يستشرف إلهامات «الحياة الجديدة» (Vita nova) على حد تعبير الشاعر الفلورنسى دانتى، تلك الحياة التى تتأتى للإنسان من الداخل.

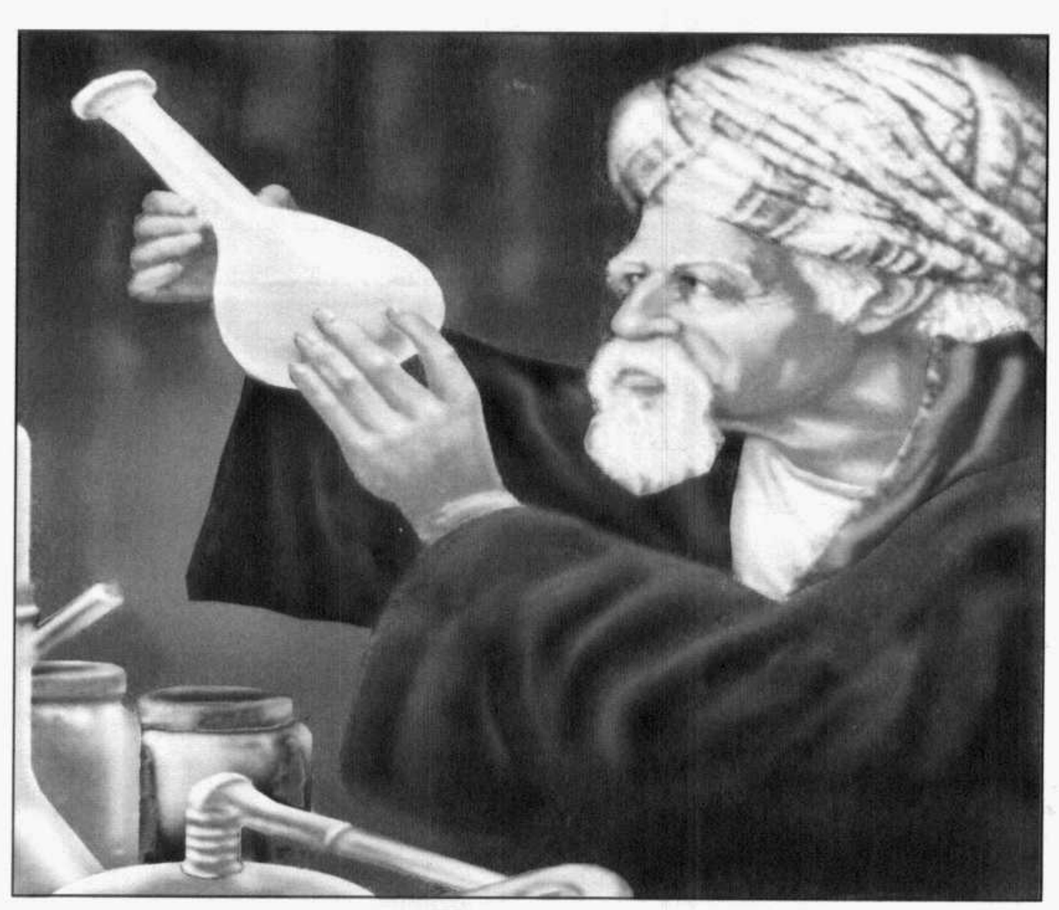
ثم انطلق العقل الأوروبى نحو الفكر الحر، والهوى الحـر، والتعبير الأدبى الحـر. وفى البـداية أخـذ الأوروبيـون فى بعث التـراث اليـونانى الرومـانى من الأكفان، وبعدها لم يكتفوا بذلك وإنما مضـوا قدما نحو الإبداع والخلق فى جرأة نادرة مكنتهم من التعبير عن أنفسهم كما هم فى حـاضرهم وليس بشىء قد مضى. وبهذه الفلسفة الثورية الجديدة، فإن الكثير من القيم التى ظلت أطروحات موضوعية صارت شيئا ذاتيا، وحتى البديهيات الرياضية بعد أن كـانت مطلقة خضـعت هى الأخرى إلى نظرة نسبـية. كذلك صارت الحـال مع تجريدات عدة، عندما أخضعت للفحص والتمعن تحت مجهر العقلانية والتجربة الملموسة.



جابر بن حيان فى معمله



لقد أضـحت المعرفـة حقا لكل الـناس، دون تمايز طبقى؛ لأنهـا هبة الله للبشر أجمعين، بعد أن كانت السلطات العلمانية والدينية فى العصور الوسطى قد اتكأت على أضاليل كثيرة اتخـذت منها الذريعة للتنكيل بكل صاحب فكر حر أو مخـالف، بتهـمة «الهـرطقة» حـينا، وبسُبـة ممارسة السـحر الأسـود فى أغلب الأحيان.



ابن سينا - الشيخ الرئيس



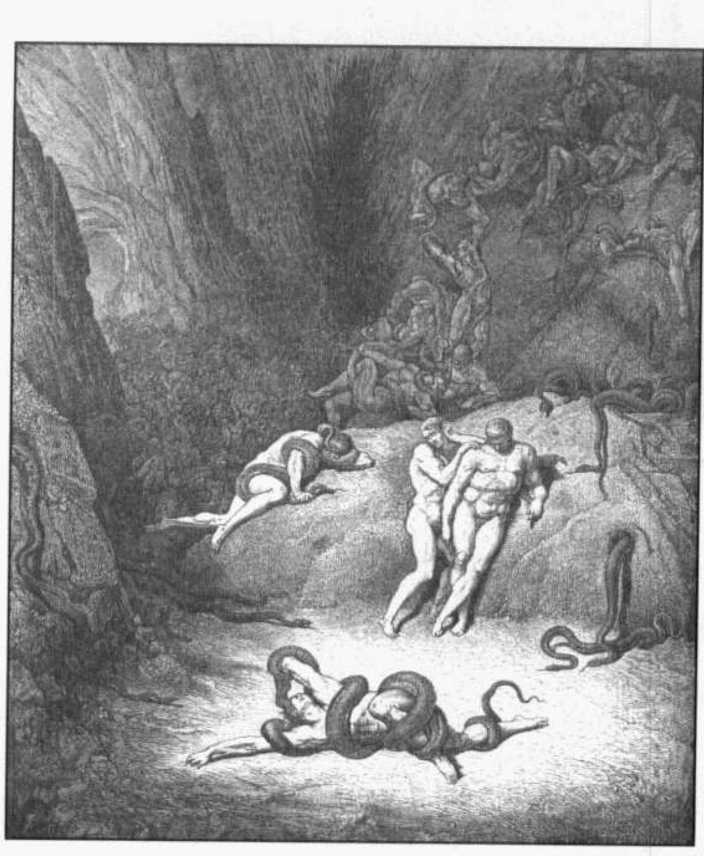
٨

للمؤرخ الإنجليـزى المرموق إدوارد جيـبون فى كتابـه العمدة «اضمـحلال وسقـوط الإمبراطورية الرومانيـة» حكم صائب على العصـور الوسطى الأوروبية التى امتدت من القرن الرابع حتى الـقرن الرابع عشر، بأنها «فترة من التبربر والغـيبية»، ففى هذه الحقبة التـاريخية ترسخت فى ضمائر الناس فكرة مـؤداها أن هذا العالم إن هو إلا سراب كاذب، وبأن كل ما هو أرضى أو مادى أو جسدى تافـه ينبغى العمل على إذلاله بل وإماتته. على أنه مع انتشار التعليم ووصـول المؤثرات الحضارية العربية إلى الغرب الأوروبى تنبه الناس إلى قـيمة الحياة الدنيا والجوانب الإيجابية فيها والتى لا تتـعارض مع السعى الروحانى، فأخذوا ينظرون إلى العالم نظرة مختلفة. وقد شملت النظرة الجديدة كل مناحى الحياة، ولم يعد المصورون مثلا يكتفون برسم صور للبشر لا حـياة فيها ولا حركـة ولا نبض، وإنما راحوا يعبرون عن إحساسـاتهم وانطباعاتهم فيمـا تخطه الريشة لتعـبر عن الذاتية الفردية التى طمـست معالمها فى درج الطبـقات التى لم يكن الإنسان الفرد فيها إلا ترسا فى عجلة كبيرة. وانكبّ أهل العصر الجديد على دراسة علوم التشريح والتاريخ الـطبيعى، حـتى يترجـموا فى أعـمالهم نبضا من الـصدق والقيمة الجـمالية، مسـترشدين أيضا بآيات الفن الكلاسيـكى اليونانى والرومانى. وكان الرجـوع إلى التراث اليـونانى الرومانى وراء وصف عصر النهضة باسم «الرنيسانس» أى «الميلاد الجـديد» (Renaissance). ومن أوائل الإيطاليين الذين استلهـموا التراث الـكلاسيكى كان الشـاعر الفلورنسى دانتى (١٢٦٥-١٣٢١)، الـذى شهـد تقلبات وصراعات سياسـية فى مدينته فلورنسا ين حزبى «السـود» مؤيدى البابوية و«البـيض» مؤيدى الإمبراطورية الألمانيـة، ثم نفى لتورطه فى الصراع خارج فلورنسـا. وفى منفاه أخرج دانتى ملحمـته



دانتى - رسم دوريه

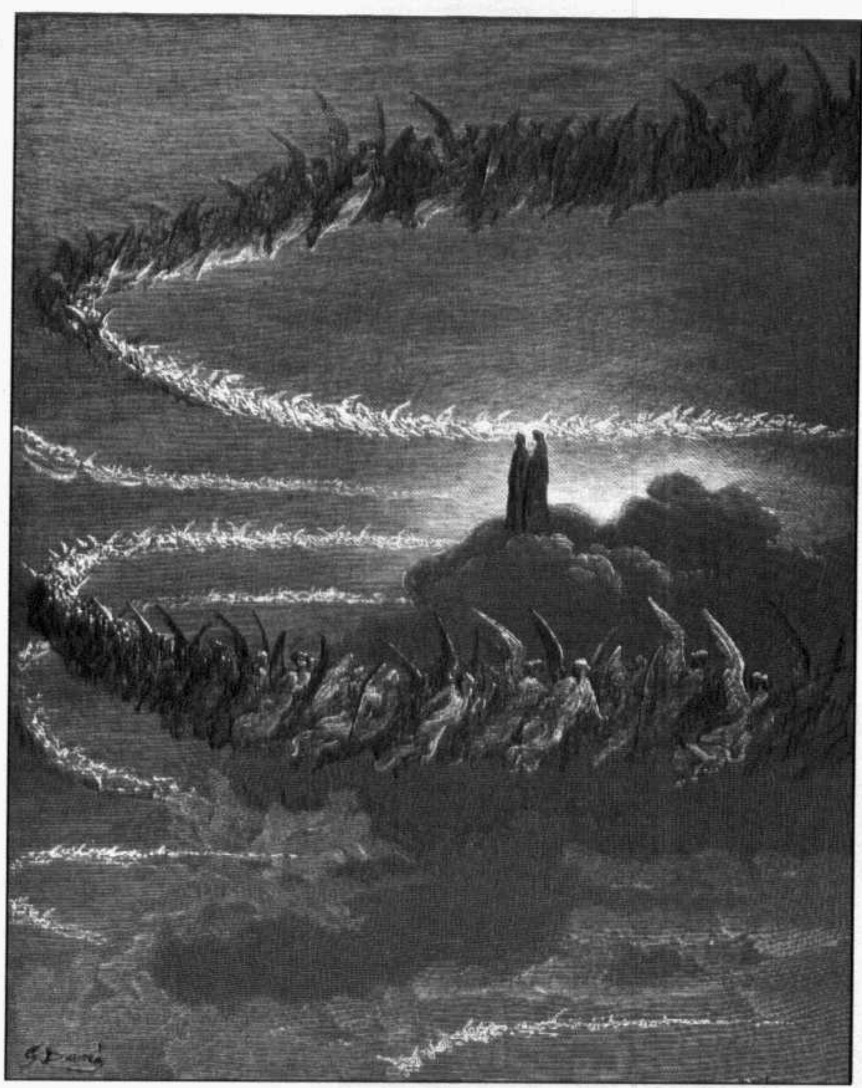
الشهيرة «الكوميديا الإلهية»، التى استوحاها من ملحمة الشاعر الرومانى ڤرجيل (إنياد)، حيث كانت ديدو ملكة قرطاج تظهر لإينياس البطل الذى كان قد هجرها وحطم قلبها ترشد خطاه وهو يتحسس طريقه إلى العالم السفلى. من هذه اللوحة الكلاسيكية شعرا استلهم دانتى «رحلته» إلى العالم الآخر، فى لغة إيطالية عذبة وفى أوزان موسيقية أثارت ذهول معاصريه. وفى هذه الرحلة يأخذنا دانتى إلى «الجحيم» فى «عمق الأرض بحيث إن ألقي فيها حجر لم يصل إلى القاع إلا بعد سبعين عاما». وجحيم دانتى من عشر درجات، كل درجة للقصاص على ذنب معين من أوزار الحس؛ من بصر وسمع ولسان ويد وبطن وقدم وفرج. وفى الدرك السفلى من الجحيم يقبع إبليس الذى أوقع البشرية فى غوايته. وبنفس الدرك حفرة لقابيل قاتل أخيه هابيل. أما الدائرة التاسعة فى جهنم فهى ليست من النار وإنما من الجليد. ويصور دانتى إبليس فى عمق جهنم، وله ثلاثة وجوه وست عيون وثلاثة ذقون وثلاثة أفواه يمضغ بها الخونة: يهوذا وبروتوس وكاسيوس.



«الجحيم» لدانتى » رسم دوريه

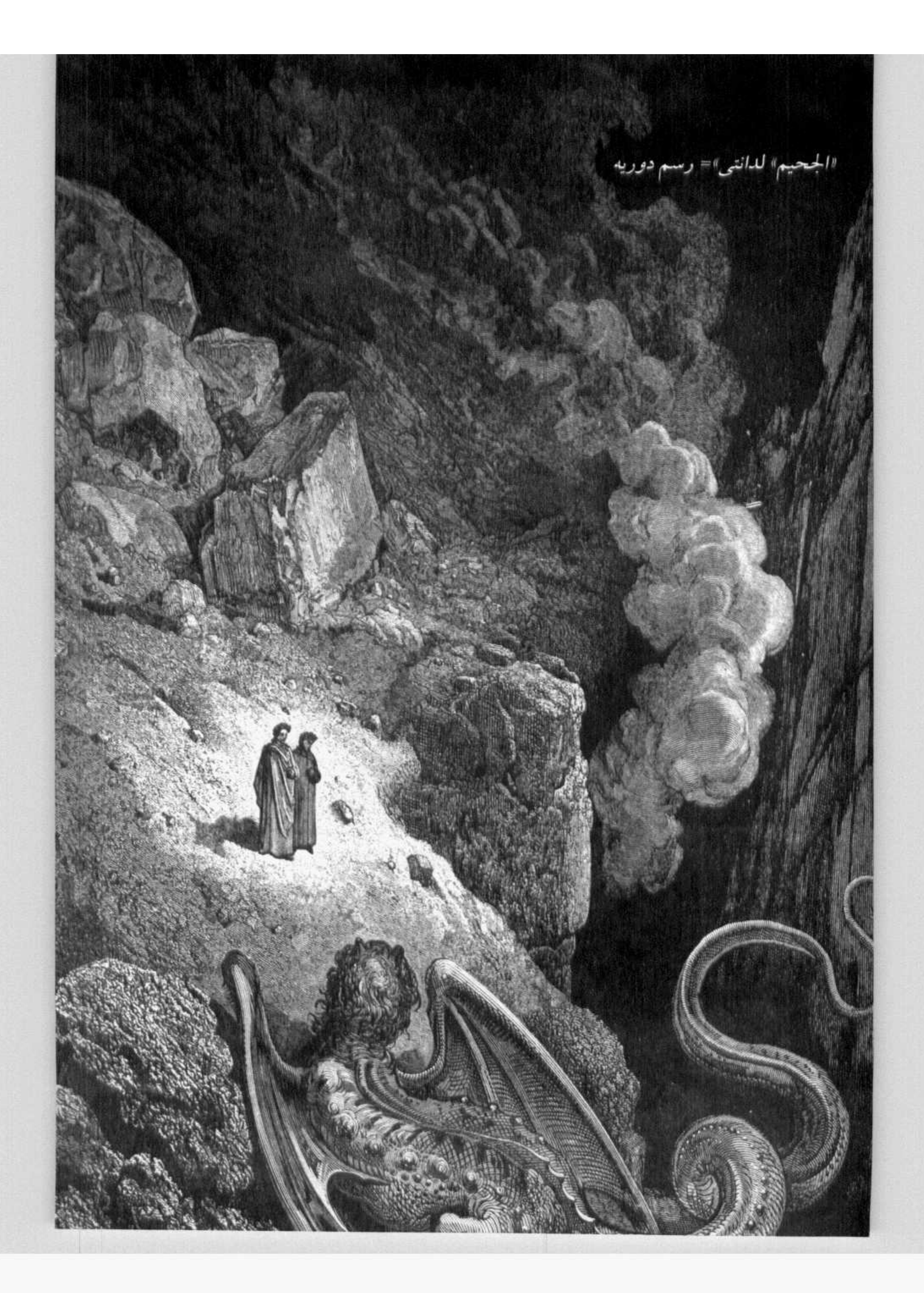
وفى المطهر نلقى حملة الصخور على الظهور، وهم يتطلعون إلى الأشجار المثمرة دون أمل بسبب ثقل الأحمال. وعند مخارج المطهر تظهر بياتريس (حب دانتى الأول والتى تزوجت من غيره وماتت فى شرخ شبابها) التى يلقبها «بعروس السماء» لترشد خطاه قبالة الفردوس. وملكوت الفردوس هو البهاء الكلى والخالص فى لون الذهب، وهنالك تتصاعد الأناشيد الإلهية تسبيحا من الأرواح للفيض الإلهى الذى لا تجرؤ العيون على معاينته.





دانتى فى السموات - رسم دوريه

وسواء فى الجحيم أو المطهر أو الفردوس نقابل شخوصا من صميم سجلات التاريخ من أبطال الحروب مثل آخيل بطل طروادة، ومن الزهاد مثل فرانسيس الأسيسى؛ ومن عامة الناس مثل السيدة فرنسيسكا التى تعترف لدانتى أنها بعد أن قرأت قصة لانسلوت الفارس وغرامه بالملكة جونيڤير زوجة الملك آرثر «صاحب المائدة المستديرة»، أقبلت على عشيقها باولو دون أن تشعر بوخز ضمير، وبأنها ليست نادمة على فعلتها رغم ما تكتوى به من نار فى قلب جهنم! ويقدم دانتى فى «رحلته» أيضا صورا للعواصف التى تجتاح الغابات، والضفادع التى تقفز إلى جداول المياه من جوف الأفاعى، والزواحف التى تمرق كوميض البرق، والأجساد العارية التى تتصبب



«الجحيم» لدانتي» = رسم دوريه



زيتا، والأم التى تحتضـــن وليدها لتحميه من سعـير النار. هذا وقد أنزل دانتى فى «الجحيم» عددا من البابوات الذين ترددوا فى خطـيئة الرشوة وبيع المناصب الدينية بالمال.

وإلى جانب «الكوميـديا» أخرج دانتى كتابا باللاتينيـة بعنوان «عن الملكية» (De Monarchia)، يدعو فـيه إلى إرسـاء قواعد نـظام حكم عالمى يســهر على السلام والعدالة والحق، شريطـة ألا يكون للبابوية فى هذا النظام يدٌ من قريب أو من بعيد.

كـان طبيـعيـا أن تنزعج الدوائر البابـوية وتوابعهـا من هذا التطاول غيـر المسبوق. ولكن البـابوية، وقد بدأت تتكسر أنيابها، لم تعـد تملك القدرة على إحراق دانتى بالنار كما كـانت تفعل بالأمس القريب، وباتت كلمات دانتى على كـل لسان دون خوف أو توجس من شبح محاكم التفتيش.

بترارك:

لقد فتح دانتى الطريق أمام الإيطاليين لما يعرف باسم «الحركـة الإنسانية» بمعنى إحياء التراث اليونانى الرومانـى وبعثه من جديد، بعد أن ظل مـئات السنين من المحرمات. والتـقط الخيط بعد دانتى كل من فرنسـيسكو بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) وجيوڤانى بوكاشيـو (١٣١٣-١٣٧٥) تباعا. كان بترارك هو أيضـا من فلورنسا، وقد قدر لأسرته أن تـنفى عن المدينة لأسباب سياسـية أيضا، فهاجرت إلى منطقة بروڤانس فى الجنوب الفرنسى. وفى فرنســا التحق بترارك بجامعة مـونبلييه ليدرس القانون. وفى سنة ١٣٢٦م عمل فى البلاط البابوى فى منفاه فى مدينة آڤنيون، وذلك بعد أن هاجر البابوات من روما إلى فـرنسا. وقد كان بترارك شاعرا فذا بمقـاييس عصره، فنظم العديد من القصـائد، أشهرها مجمـوعة بعنوان (Canzoniere) نطالع فيـها حكاية حب الشاعر لسـيدة تدعى لاورا، يظن أنهـا كانت زوجـة لنبيل فـرنسى اسمـه هيودى ساد. ويـبلغ عدد قصـائد هذا الديوان ثلاثمائة وست وستين قصيدة، قيل: إن بتـرارك فى أواخر حياته أبدى تجاهها نفورا شديدا وندما جارفا.

وله كتابات باللاتينية من بينهـا كتاب بعنوان «إفريقيا» يعرض فيه لحـملة سكيبيو أفريكانوس ضد قرطاجة فى الشـمال الأفريقى (١٤٦ ق م) والتى انتهت بتحويل قـرطاج إلى كومة رماد. وله كتاب آخر عن «مشاهير الرجال»، وكتاب آخر بعنوان (Secretum) تأثر فيه «باعترافات» القديس أغسطينوس. وله أيضا كتاب عن حياة الزهد والتوحد. وفى سنة ١٣٤١ توج بترارك «أميرا للشعر» فى مدينة روما. وبعد طول ترحال عاد بترارك إلى إيطاليـا، فحلَّ ضيفا على نائب كونت ميلان، ثم انتقل إلى مدينة البندقية، فمدينة بادوا، وأمضى بقية حياته فى بلدة أركوا على مقربة من پادوا، وذلك مع ابنته فرنسيسكا وزوجها.



وقد نظر المعاصرون إلى بترارك نظرة إعجاب وتقدير، حتى إن البعض وضعه فى مرتبة أعلى من دانتى نفسه، على أنه فيما تلا ذلك من تاريخ ظهر من النقاد من يقول بأن نتاج بترارك الشعرى طبلٌ أجوف يدق على العواطف الرخيصة، بل إن كلمة «بتراركى» صارت فيما بعد سُبة يوصم بها من يتكلف من الشعراء وكتاب النثر أيضا!.

بوكاشيو:

أما جيوفانى بوكاشيو فقد كان ابنا غير شرعى لفلورنسى يدعى بوكاشيودى شلينو. وقد أرسله والده إلى مدينة نابلى - التى كانت تخضع لسلطان فرنسا - ليدرس القانون والاقتصاد. وفى نابلى وقع جيوڤانى فى غرام ماريا دى أكونيا ابنة الأمير الفرنسى نفسه روبرت. ولم يكمل جيوڤانى دراسته الجامعية، وانصرف إلى الكتابة والشعر. ومن رواياته الشهيرة: «فيلوكولو» و«فيلوستراتا» و«ترويلوس وكرسيدا» و«الجارة المحبوبة» و«رثاء للسيدة فيامتا» (Elegia di Madonna Fiammetta) و«حورية فيزولى» وغيرها من قصص الحب والغرام.

ولكن أهم أعمال بوكاشيو جميعا هى «ديكاميرون» (١٣٦٥م)، وهى حكايات بلغت المائة حكاية جاءت على لسان نفرٍ من أهل فلورنسا وقد أفلتوا بما يشبه المعجزة من وباء الطاعون الذى كان قد ضرب المدينة سنة ١٣٤٨م. وهذه «الحكاوى» تجمع بين الكوميديا والتراجيديا فى ماعون واحد، وجميعها من خبرات واقعية خبرها هؤلاء الناجون وقت الوباء الكبير؛ ولهذا فإن هذه الصورة تعتبر خطابا أو صورة أرضية فى مقابل الصورة السماوية التى قدمها الشاعر دانتى فى «الكوميديا الإلهية». والفكرة التى تدور حولها الحكاوى هى الصراع بين الإنسان وقدره، وذلك فى عرض واقعى يأسر القلوب.

وقد كان بوكاشيو صديقا حميما للشاعر بترارك، وقد بكى عليه بكاءً مرا عند وفاته. ويذكر أيضا أن بوكاشيو قد وضع عدة مؤلفات باللاتينية عن الآلهة القدامى، وعن مشاهير النساء والرجال فى التاريخ القديم، وأيضا فى مديح مثله الأعلى دانتى الفلورنسى.

ومع بدايات القرن الخامس عشر وصل إلى فلورنسا عالم بيزنطى اسمه مانويل كريزولوراس، الذى اضطلع فيما بين عامى ١٤٠٢، ١٤٣٠م بتدريس اللغة والآداب اليونانية فى جامعة پادوا، وقد تحلق حوله عدد وافر من الإيطاليين من أشياع «الحركة الإنسانية». وفى سنة ١٤٣٨م وصل الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن ليشارك بنفسه فى مؤتمر فلورنسا للنظر فى مساعدة الغرب الأوروبى للدولة البيزنطية ضد الدولة العثمانية. وقد اصطحب الإمبراطور معه عالما يدعى



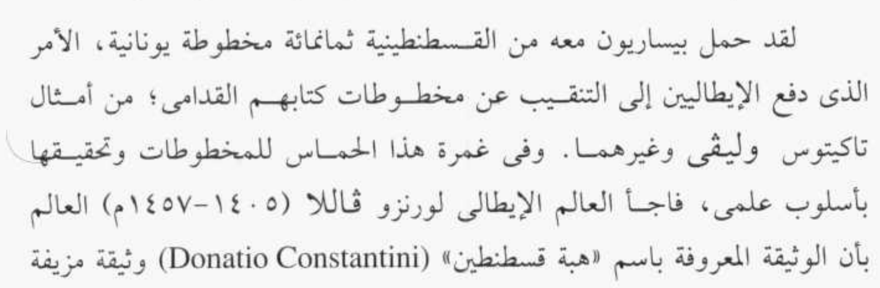
بيساريون، الذى آثر البقاء فى فلورنسا يعلم اللغة اليونانية، وهو الذى تبرع بمكتبته فيما بعد لجمهورية البندقية. وأصيبت إيطاليا بحمى الكلاسيكيات، وقيل للتدليل على هذا الوحَم الجديد أن شابا يدعى بيكو ديللا ميراندولا كان يجيد تسع عشرة لغة وهو فى سن الحادية والعشرين!.

ولقد تبنت الأسرات الحاكمة للمدن الإيطالية الثرية مهمة تشجيع وإيواء العلماء الإنسانيين، وراح هؤلاء النبلاء الحكام أنفسهم يلتقطون المخطوطات من كل صقع، ويعهدون للعلماء بفك طلاسمها وإخراجها للناس. كذلك وظف هؤلاء الأمراء «المستنيرون» عددا من النابهين ليكونوا مربين خصوصيين لأبنائهم وبناتهم فى القصور. من ذلك مثلا ما فعله دوق مدينة أوبينو الذى جعل من العالم كاستليونى مربيا خاصا لأولاده، كما كانت الحال فى العالم اليونانى القديم. وكان كاستليونى يؤمن بضرورة إعطاء البنات نفس الحظ الذى يناله الذكور من الثقافة والآداب، بعد أن كانت العادة فى العصور الوسطى أن توارى البنات خلف الستار حفاظا على طهرهن الجسدى والعقلى جميعا.

ونشط الإيطاليون فى مراجعة خطب شيشيرون وكاتو ومحاكاتهما فى الحديث، كما عمل الكثيرون على تنقية اللغة اللاتينية السائدة من شوائب «الجرمنة» والتبربر التى لحقت بها إبان العصور الوسطى. وسرت فى الجميع روح جديدة أحدثت انقلابا فى المواقف والاتجاهات حتى فى أشد الأروقة جمودا وتحفظا؛ ففى سنة ١٤٥٦م أختير للجلوس على كرسى البابوية إيطالىٌ يدعى إنياس سلڤيوس الذى كان قد أخرج كتابا بعنوان: «فن الخطابة» (Artis rhetoricae precepta)، وكان المبرر الأقوى فى اختياره للعرش البابوى أنه أعلم رجال عصره فى اللسان اللاتينى القويم. وقد شهد ذاك العصر علماء كثيرين يجوبون مختلف البلدان والأديرة بحثا عن المخطوطات المطمورة هنا أو هناك. وانتقلت الحمى إلى معسكرات الجند، فدعى مشاهير النحويين والخطباء ليحاضروا العسكر فى الكلاسيكيات، كما استخدم الأمراء والملوك هؤلاء العلماء كسفراء لهم إلى مختلف العواصم الأوروبية. وصار من علامات الرفعة والوجاهة الاجتماعية أن يستضيف الأمراء أعلام الحركة الإنسانية فى قصورهم، حيث يدعى علية القوم رجالا ونساءً للاستماع إلى محاضراتهم، وكثيرا ما كان هذا الجمهور ينفعل لأسطورة هنا أو قصة حب هناك فينخرط الجميع فى البكاء والتنهدات.

وبهذا توج سقراط وأفلاطون وأرسطو من جديد بعد إهمال لردح من السنين. وأحس الناس أن الماضى الذى طلقه العصر الوسيط صاحب مصداقية لا تقل عن مصداقية الحاضر نفسه، وبأن المستقبل سوف يلتفت غدا إلى الحاضر بنفس القدر الذى يلتفت به الحاضر إلى الماضى.



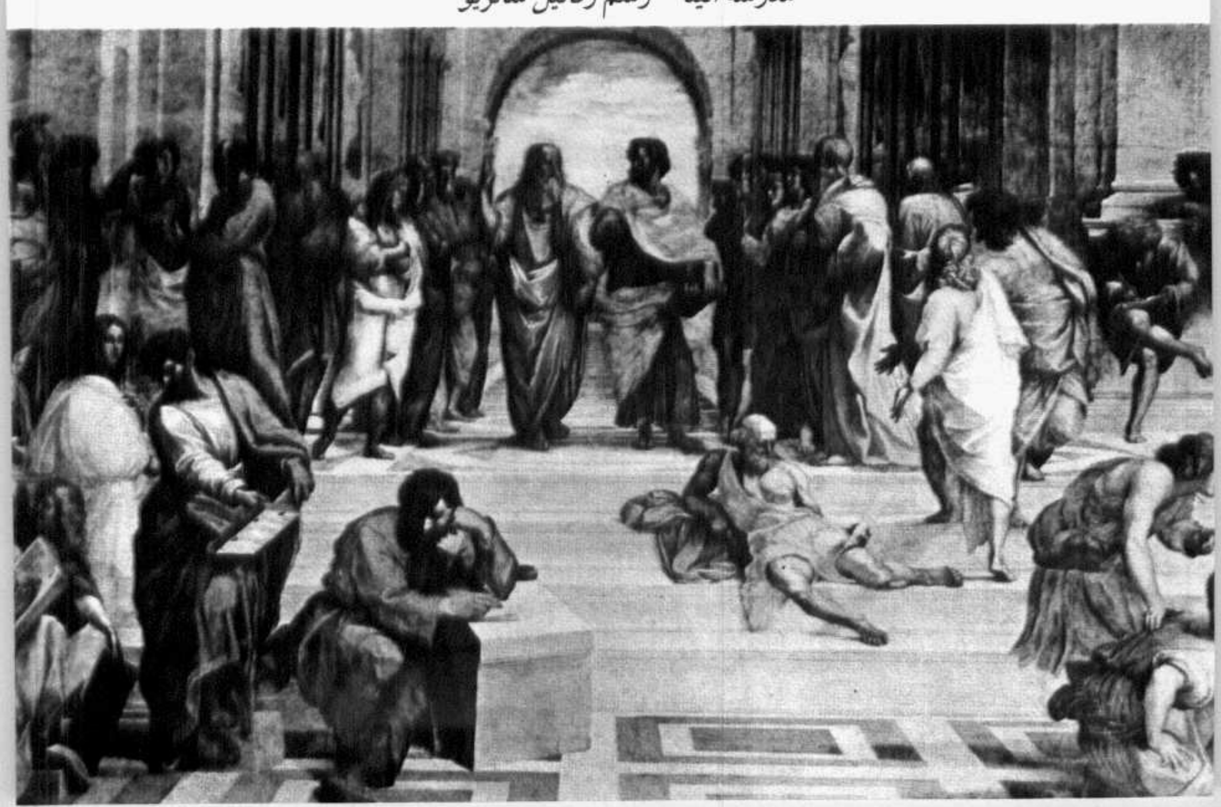


لقـد كانـت هذه النظرة عن «الاسـتمـرارية» (Continuum) فى سجل البشرية أعظم منظومة أخرجتها مدرسة فلورنسا فى القرن الخامس عشر.

لقد حمل بيساريون معه من القـسطنطينية ثمانمائة مخطوطة يونانية، الأمر الذى دفع الإيطاليين إلى التنقـيب عن مخطـوطات كتابهـم القدامى؛ من أمـثال تاكيتوس وليڤى وغيرهمـا. وفى غمرة هذا الحمـاس للمخطوطات وتحقيـقها بأسلوب علمى، فاجـأ العالم الإيطالى لورنزو ڤاللا (١٤٠٥-١٤٥٧م) العالم بأن الوثيقة المعروفة باسم «هبة قسطنطين» (Donatio Constantini) وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء. تقول هذه الوثيقة أن الإمبراطور قسطنطين الكبير كان قد أصيب بمرض خبيث عضال هو مرض «الجذام»، وأن أطباءه وقد أعيتهم الحيلة نصحوا إليه أن يغتسل بدم أطفال حديثى الولادة كى يبرأ من هذا الوبال، وأن قـسطنطينا قد أمر بجمع عدد مـن هؤلاء المواليد، وإعدادهم للمذبحة البشعة لتطبيب القيصر الكبير.

وفى غفوة نوم زاره طيف ونصحه بأن يرفع يـديه عن هؤلاء الأطفال، وأن يقصد إلى البابا سلڤستر ليعافيه بصلاته والماء المقدس. وكـان أن انصاع قسطنطين للرؤية فقصد إلى البابا، وتمَّ له الشفاء!

مدرسة أثينا - رسم رفائيل سانزيو



ومكافأةً لـلبابا على هذا الصنيع الجـميل أهدى قـسطنطين قصر الفـاتيكان للبابا ليقيم فـيه، كما سمح له بامتطاء جواد أبيض وبتزيين رأسـه بقلنسوة بيضاء تماما كما يتزين ويمتطى الإمبراطور نفسه، إلى جانب ذلك قرر قسطنطين أن ينتقل من روما إلى عاصمة جديدة (بيزنطة = القسطنطينية) فى الشرق ليترك روما وسائر بلدان الغرب الأوروبى تحت إمرة وصولجان البابا لا يشاركه فى ذلك أحد!

أعلن العالم لورنزوڤاللا أن لغة وخط وقلم وأسلوب وخامـة الوثيقة وما تحتويه من أحاجى لا تنتمى إلى عصر قسطنطين وسلڤتسر، وإنما هى من تزييف الدوائر البابوية فى القرن الثامن للميلاد على عهد ليو الثالث والإمبراطور شرلمان.

ودلل ڤاللا على صدق نظريته بأن العملات البابوية لعصر سلڤستر خالية من أية إشارة إلى هذا الحدث الجلل، لو كان حقا قد وقع، وبأن الأبحـاث أثبتت أن قسطنطينا لم يكن بحال مصابا بمرض الجذام. وهكذا انكشف للعالم زيف كبير، ومـضت «هبة قسطنطين» فى كتب التاريخ على رأس مزيفات العصور الوسطى، والتى ظل الناس من خاصة وعامة يصدقون كل حرف ورد فيها!

وليس أدل على «الانفتاح» الجديد أن ڤاللا الذى افتضح البابوية وفعلهـا المشين، قد اختير ليكون سكرتيرا خاصا للبـابا نيقولا الخامس. ولو أن ڤاللا قد ظهر قبل ذلك بحـين لكان نصيبه الإحراق بالنار على أنه «هرطيق» كبير!

وتشجع المفكرون، واتجه الكتاب فى إيطاليا بعيـدا عن تقليد العصر الوسيط فى الكتابة عن الأباطرة والجنرالات والكرادلة وأمـراء الإقطاع، واستعـاضوا عن ذلك بالكتـابة عن حياة الشـعراء والفنانين وأهل العلم، من ذلك ما حظى به العالم الفلورنسى ڤسباسيانو نيكولو دى نيكولى الذى كان يقتنى مكتبة تحوى ثمانمائة مخطوطة من التراث القديم، وقد ورد فى سيرته ما يلى:

«ڤسباسيانو رجل وقور حسن الهندام، حاضر البديهة، متقد الذكاء والحيوية .. لا تفارق الابتسامة شفتيه، وحديثه ينساب عذوبة وطلاوة، وهو يرتدى ثوبا من اللون القرمزى ينساب حتى يلامس الأرض.. وهو أعزب، عـزوف عن الزواج، فلقد اتخـذ العلم له زوجا، واستـعاض عن ذلك بمدبرة منزل حكيمة ونظيفة. وهو أشد الناس أناقة على مأدبته، ويتناول طعامه من أوان تشبه التحف القديمة. والمائـدة مكسوة بالبورسلين، والأوانى مزخرفـة بآيات الفن، والأقداح من البلّور الشفاف. وأما المفـارش فهى من القطن أو الكتان الناصع البياض. وهو يقـتنى العديد من التحف والتمـاثيل الرخاميـة واللوحات المنقوشة والفـسيفـساء من كل صنف. وفى الصالة توجـد خريطة للعالم دقـيقة المعـالم والخطوط، وعليهـا العواصم والمدن الملونة، وداره محـط العديد من الزوار، حيث تجد العين راحتها، وتلقى الروح بهجتها، وتمتلئ المعدة بما لذ وطاب».



كذلك عرف نفس العصــر أساتذة عمالقة فى مجال التـعليم وفن التربية، ومن هؤلاء العلمـاء على سبيل المثـال لا الحصـر نذكر ڤتـورينو ده فلترى (De Feltre) الذى كان صاحب شـخصية مرحـة فكهة. وقد نادى ڤتورينو بضرورة الاهتمام بالتـربية البدنية للشـباب وأيضا الموسيقى؛ لأن العـقل السليم فى الجسم السليم. وقد لقيت مدرســته قبولا واسعا فى كل ربوع إيطاليا، وقـد تأثر به فيما بعد عدد كبير من مفكرى وكتاب إنجلترا من أمثال ولزى، والشاعر جون ملتون، والروائى شارلس دكنز، وغيرهم كثيرون.

أمام هذا التيار الجارف للحـركة الإنسانية فى إيطاليا، وجدت العقلية الحـاكمة فى الفاتيكان مسايرة روح العصـر، ولو على مضض منها، ففى سنة ١٤٤٧م اختير للعـرش البابوى أحد رجال الدين المحبين للكلاسيكية، ألا وهو البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥م). كان نيقولا فى الأصل ابنا لرجل بسيط يعمل خادما يدق جرس الكنيسة. وقد أقبل الابن على تراث الأقدمين حتى دفعت به الأقدار ليجلس على عرش البابوية. وما إن جلس على الكرسى العـتيد أحاط نفسه بكوكبة من «الإنسانيين الجـدد»، ثم أنشأ مكتبة الـفاتيكان وزودها بالعديد من نفـائس المخطوطات القديمة. ثم جاء بـعد ذلك البـابا بولس الثانى (١٤٦٤-١٤٧١م)، الذى كـان مغـرما باقـتناء التحف القـديمة والتـماثيل البـرونزية والأحجـار الكريمة، وهو الذى أمـر بترمـيم البـواكى التى كان قـد شيـدها الإمبراطوران سبـتيموس سڤيروس وتيطوس. ويمثل البابا ليـو العاشر قمة هذا التـوجه الإنسانى الجديد (١٥١٣م)، وقد كان لتحدره من بيت مديتشى الفلورنسى أبلغ الأثر فى حبه للفنون الجميلة وعشقه للآداب الكلاسيكية.

ميكاڤيللى:

ويبدو أن معين فلورنسا لا ينضب، فمنها أيضا خرج نيكولو ميكاڤيللى (١٤٦٩-١٥٢٧م). انحدر ميكاڤيللى من أسرة فلورنسيـة متوسطة الحال، وبسبب ذكائه ودبلومـاسيته الفائقـة اختير ليكون سفيرا لبلده وهو فى الخامسة والعشرين من عمره. ثم أوفد بعد ذلك (سنة ١٥٠٠م) لمقابلة الملك الفرنسى نفســه، وبعدها صار نائبا لأميـر فلورنسا سوردينى، الذى عهـد إليه بتنظيم الجيش وإعداد الخطب للمناسبـات العامة. وبعد أن أزيح سوردينى عن الحكم على يد آل مـديتشى بمعونة الأسبان، قبض على ميكاڤيللى وعذب بالسياط ثم طرد من فلورنسا. استقر ميكاڤيللى فى بلدة سان كاسيانو على بعد اثنى عشر ميـلا من فلورنسا، وفيها انكب على الكتابة عن تاريخ فلورنسا، وفن الحروب، ثم أخرج كـتاب «الأمير» (Princeps) أو (Principe) الذى طبقت شـهرته الآفاق



(١٥١٣م). ويقع كتاب «الأمير» فى ست وعشرين بابا؛ يعرض كل باب لموضوع محدد:

١- الإمارة وكيفية تأسيسها وأنواعها.

٢- الإمارة (أو الإمرة) الوراثية.

٣- الإمارة المكتسبة.

٤- مملكة (إمارة) داريوس الفارسى وسقوطها على يد الإسكندر الأكبر.

٥- المدائن والإمارات التى يتم الاستيلاء عليها وكيفية حكمها وإدارة شئونها.

٦- الإمارات التى تفتح بقوة السلاح أو بسلاح الدبلوماسية.

٧- الإمارات التى تكتسب بضربة من ضربات الحظ أو بمعونة الأحلاف الخارجية.

٨- الأمراء الذين يصلون إلى الحكم عن طريق العنف.

٩- الإمارة التى تقوم على أسس دستورية.

١٠- كيفية تقييم السلطة فى الإمارة.

١١- الإمارة وعلاقتها بالسلطة الدينية (الكنيسة).

١٢- المليشيات العسكرية وكتائب الجند المرتزقة.

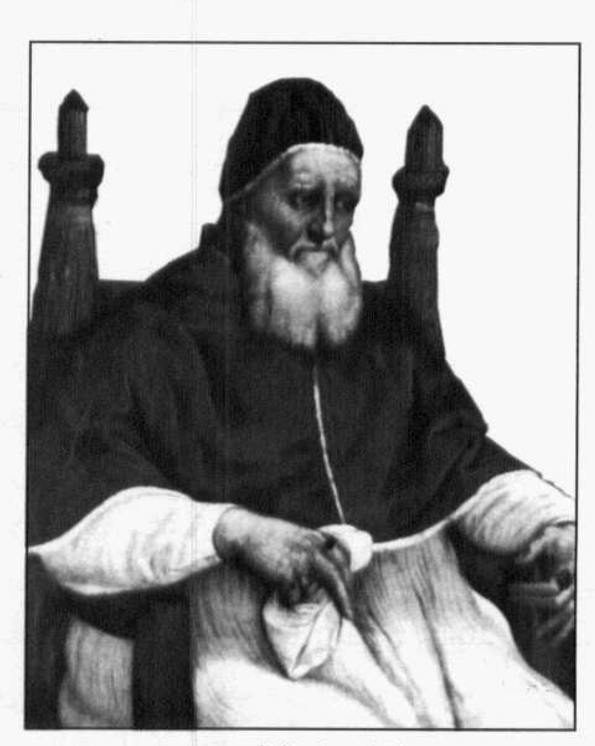
١٣- الكتائب الوطنية.

١٤- كيف ينبغى على الأمير أن يدبر شئون العسكر.

١٥- الصفات المحمودة وغير المحمودة فى الأمير.

١٦- الكرم والبخل عند الأمراء.

١٧- القسوة واللين، وهل الأفضل أن يكون الأمير محبوبا من رعيته أم مهيبا مخوف الجانب من قبل الرعية.



البابا چوليو الثالث



١٨- كيف يجمل بالأمير أن يصون كلمة الشرف.

١٩- ضرورة تجنب ما يجلب الأحقاد والضغائن على الأمير.

٢٠- قيمة الحصون والقلاع بالنسبة لسلطة الأمير.

٢١- كيف يمكن للأمير أن يحقق العزة والمهابة لشخصه.

٢٢- بلاط الأمير ومساعدوه.

٢٣- كيف يجب على الأمير أن يبعد المنافقين عن بلاطه؟

٢٤- لماذا فقد الأمراء الإيطاليون إماراتهم وعروشهم؟

٢٥- الأقدار وكيفية إدارة أزماتها الطارئة.

٢٦- الدعوة إلى تحرير إيطاليا من الدخلاء المتبربرين.

والأمير الذى كان فى مخيلة ميكافيللى هو «القائد المنتظر» الذى يمكنه طرد الأعداء الفرنسيين والأسبان من البلاد، وأيضا التصدى للإمبـراطورية العثمانية القوية. وهو من طراز نادر لا يتحرج

رحلة لورنزو دى ميدتش إلى بيت المقدس



من استخـدام القوة والبطش بل والخداع والتزييف كى يحـقق هدف أمته، وذلك تحت شعار «الغاية تبرر الوسيلة». وهذا الأمير سياسى واقعى ينظر إلى الأمور من خلال زجاج شفاف لا غبار عليه. ويجب عليه ألا يتوقع من العالم أكثر مما يعطيه إياه هذا العالم على قـدر دهائه. وهو ليس على شاكلة الأمراء التـقليديين الذين يشبهون أشباح القديسين، من أهل الكرامات والمعجزات.

والغريب فى أمر ميكاڤيللى أنه كان يرشح للإمارة الدوق سـيزار بورجيا (١٤٧٦-١٥٠٧م) سيد ڤالنتـينو. وسيـزار هذا هو ابن شقـيقة البـابا إسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢-١٥٠٣م وقيل أيضا إنه ابنه)، الذى كـانت مؤامراته وحياته الخاصة تزكم أنوف الشرفاء فى إيطاليـا والغرب الأوروبى كله. وكان ميكاڤيللى قد أمـضى بضعة أشـهر فى معسكر سيزار كسفير لفلورنسا إلى القـيصر. ولمس الكاتب فى الأمير ما ينطبق على أميره المثالى: فلقد كان سيزار يستخدم من الأساليب ما يحقق أهدافه، دون وازع أخلاقى أو إنسانى، فلقد اغتال أخاه، ثم اغتال زوج أخته لوكريشيا، هذا بخلاف العديدين من خصومه.

لقد وجـد صاحبنا فى شخـص سيزار ضالتـه المنشودة؛ ذلك لأن ميكاڤيللى كان يعـتقد (سامحه الله!) أن القيم الأخلاقية من شيم بسطاء الناس والضعفاء، أما الأمير فإنه ليس فى حاجة إلى هذه القيم فهو سيدها جميعا. ولكى يثير ميكاڤيللى مشاعر الإيطاليين لصالح أميره المرتقب، فإنه يسوق قصيدة لشاعر إيطاليا المفضل بترارك حيث يقول:

«فضيلة القوة سوف تسود

الرومان أهل البطولة ... سلوا عنا الجدود

هم يزحفون ... يزأرون كزئير الأسود

الحمية فى قلوبنا كفعل الوقود

مجدك إيطاليا سوف يعود!»

وعلى النقيض من «أمير» ميكاڤيللى رسم لنا الكونت بالداسارى كاستللونى صورة مشرقة لرجل البلاط (Cortegiano) سنة ١٥١٦م، حيث نقابل رجلاً تلقى تعليـما راقيا، وتدرب تدريبا رياضيا فى المعسكر. وهو إنسان محب للفن ويقدر القـيم الجمالية، ولديه نصيب وافر من التراث اليونانى الرومـانى ومن الأدب الإيطالى الحديث. وهو فـوق هذا يمارس الرسم ويعزف الموسيـقا، ويتمتع بروح مرحة ووجه متفائل بشوش. وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات أوروبية عديدة، وقام



السير توماس هوبى (Hoby) بترجمته إلى الإنجليـزية سنة ١٥٦١م، كما أشاد به الشاعر جـون ملتون وقال عنه: «إنه كتاب يعين المرء على أداء مـهامه التى توكل إليه فى دقة ونزاهة وعدالة، سواء كان ذلك فى أوقات السلم أو زمن الحرب».

وإذا انتـقلنا إلى عالم الفنون الجـميلة نجـد أن روح النهضـة أدت إلى تمرد الفنان على الخطوط والطرز والألوان القـوطية التى سـادت فى العصـر الوسيط. والتفت المصـورون والنحاتون إلى آيات الفن اليونانى والرومـانى يستلهمـون منها الشىء الكثير، ثم ابتدعوا خطوطا ومساحات أكثر رحابة، وألوانا تبث البهجة فى النفس، مما أدى إلى ظهور مدرسة عبقرية لا مثيل لها فى تاريخ الفن الطويل.

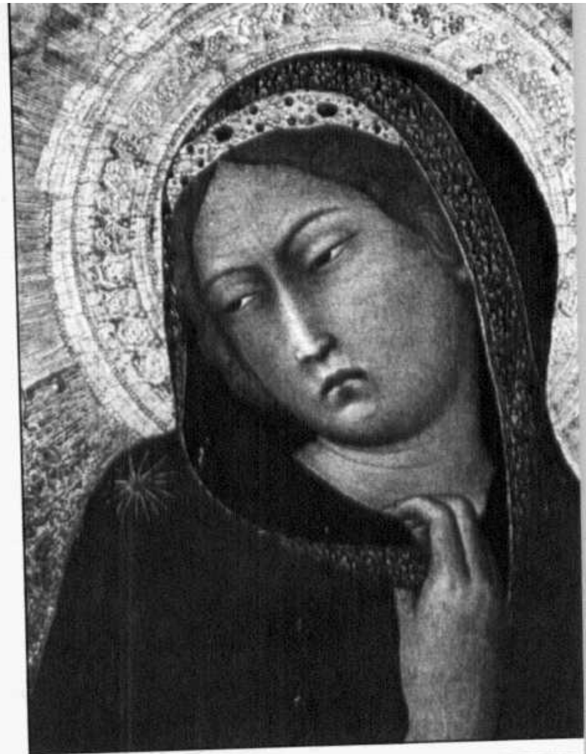
جيوتودى بوندونى:

ولقد بدأت هذه المـدرسة بريادة جيـوتو دى بوندونى (١٢٦٦-١٣٣٦م)، المؤسس الحقـيقى لفن التصوير الإيطالى لعصر النهضة. ويذكر عنه أنه كـان صبيا يرعى الأغنام فى الجبال، وقد عثر عليه الفنان سيمابوى (Cimabue) وهو يرسم على الحجر، فاقتـاده معه إلى مرسمه، وراح يدربه حتى صـار من الأفذاذ المعدودين. ولوحـات جيوتو تفـيض حيوية وحـركة، ومن أشهـرها لوحة بعنوان «فراش موت القديس فـرانسيس الأسيسى»، وصورة للشاعر دانتى. وقـد قام جيوتو بزيارة مدينة روما سنة ١٣٠٠م ليقوم بتـصميم فسيفساء كنيسة القـديس بطرس القديمة. وبينما كان يقوم بهذا العمل تشرب الشىء الكثير من آثار الفن الرومانى القديم فى كل بقعة من حوله.

فرا إنجليكو:

ثم لمع نجم الفلورنسى فرا إنجليكو (١٣٨٧-١٤٥٥م) الذى قيل: إنه كان يحرك فرشاته على لوحاته «والدمع ينهمر من عينيه، ولذا فقد جاءت لوحاته بملامح تشع روحانية، حتى وصفت بأنها «نوافذ تطل على الجنة». وبعده برز مـاسكاشيو (١٤٠١-١٤٢٨م) الذى أبدع فى لوحتى «طرد آدم وحواء من الجنة»؛ و«جابى الضرائب». أما بوتشـيللى (١٤٤٤-١٥١٠م) فقد جسد الحوريات التى ورد ذكرها فى الأساطير القديمة، وربة الجمال ڤينوس.

وقائمـة الشوامخ فى فلورنـسا لا تنتهى، فـهى تضم أسمـاء لامعـة أخرى مثـل فرا لپى؛ ودومنيكو جيرالدانجو (١٤٤٩-١٤٩٨م)؛ ثم نأتى إلى أكثر الأسماء شهرة: مايكل أنجلو (١٤٧٥-١٥٦٤م)؛ وليوناردو داڤنشى (١٤٥٢-١٥١٩م).



أيقونة «العذراء» چويتو

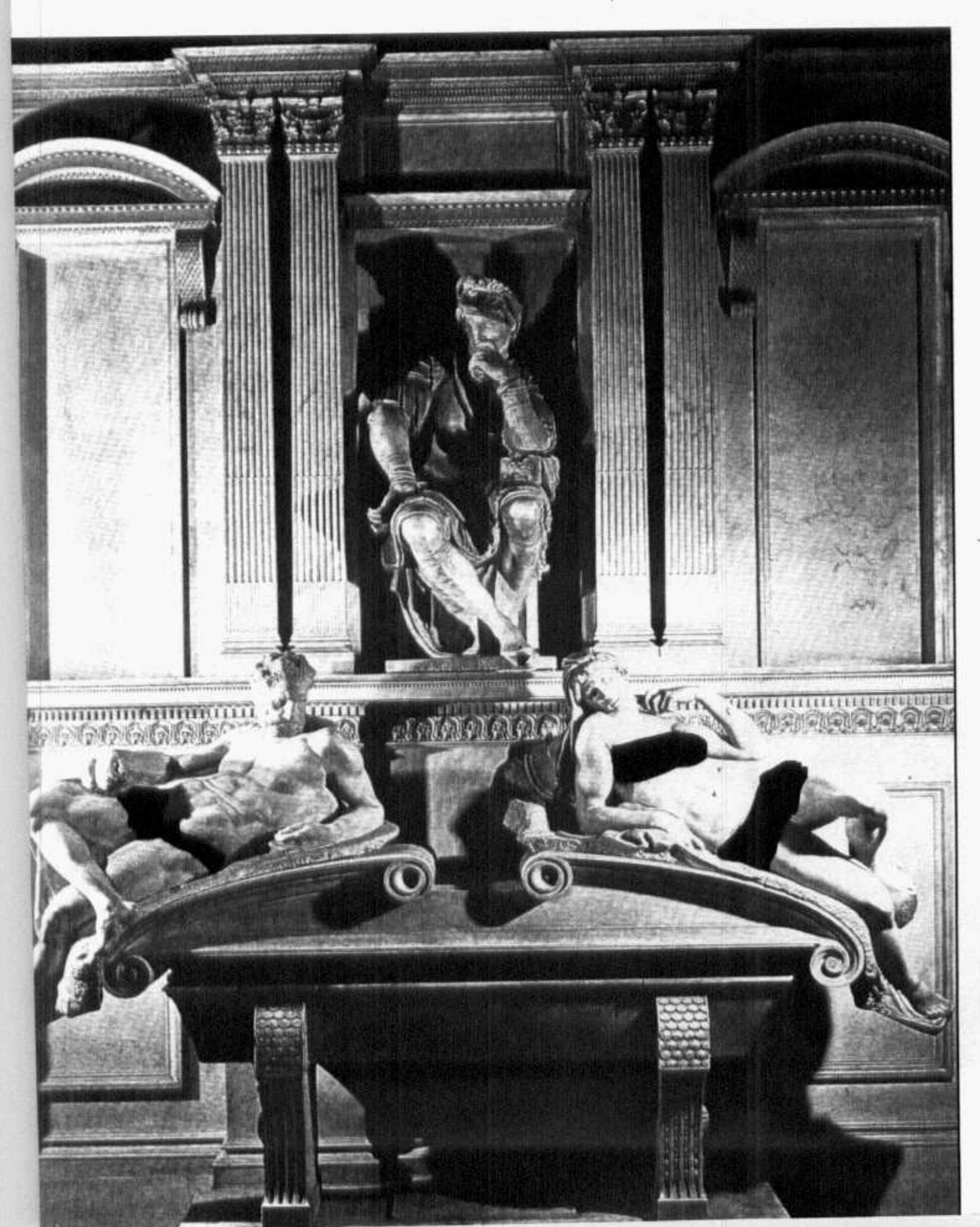


«الربيع» لبوتشيللى



مايكل أنجلو:

تتلمذ مـايكل أنجلو فى فلورنسا على يد كل من برتولدو، وجيـرالدانجو، وقد لمس فيه أستاذاه عبقرية فذة وطاقة لا تعرف الحدود. وذاعت شهرة أنجلو فى كل مكان، وأخذ الفلورنسيون يشيدون بعبقريته فى مجالسهم الخاصة والعامة، مما لفت إليه نظر أمـير البلاد لورنزو دى مديتـشى، فاستدعـاه إلى قصره واستـقبله بالترحاب والتكريم. وفى القـصر الأميرى التقى مايكل أنجلو بمشـاهير عصره من الكتاب والفنانين. وقـد اهتم مايكل أنجلو بالجسم الإنسـانى وتفصيلاته الدقـيقة،



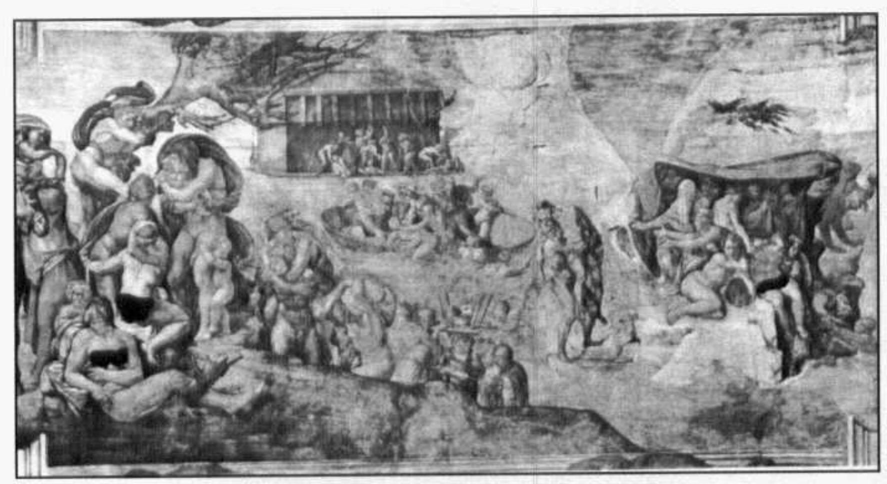
ضريح
آل ميدتشى -
روما



متعللا فيما ذهب إليه بأنه إذ يبرز جمال الجسد الآدمى فإنه يؤكد للرائى عظمة الخالق فى تشكيل خلقه على أحسن صورة. وقد اعتقد أنجلو بوجود علاقة ما بين هندسة الجسد الإنسانى وبين المعمار، ولذا فإنه راح يتحدث عن القيمة الجمالية لما أسماه «العُرى الفنى» كنموذج له صفات جمالية تشريحية بعيدة عن كل ما يثير الغرائز الرخيصة والشعور بالخجل، كما هى الحال مع الجسد العارى العادى. كذلك كان من مقولات أنجلو أن الملابس عند المصور أو المثال تمثل عازلا يحول دون إبراز حركات الجسد ومشاعره وتعبيراته. ومن روائع مايكل أنجلو فى التصوير لوحة «الطوفان»؛ ولوحة «يوم الحساب»؛ ثم «قصة الخلق» التى زين بها سقف كنيسة سستين (Sistene). ومن روائعه فى النحت تمثال «الرحمة» (Pieta)؛ وتمثال داود؛ وتمثال موسى. وقد كان مايكل أنجلو فنانا متعدد المواهب، فهو مصور ونحات ومعمارى وشاعر ومهندس حربى؛ إذ إنه ساهم فى تصميم وتشييد تعزيزات الدفاع عن مدينة فلورنسا سنة ١٥٢٩م.

وهو إلى ذلك شاعر رقيق المشاعر، كتب عدة قصائد من بينها قصائد حب أفلاطونية لصديقتين هما: تاما سودى كاڤاليرى، وڤيتوريا كولونا. هذا إلى جانب بعض القصائد الغنائية التى تأثر فيها بالشاعر دانتى، وله قرابة خمسمائة رسالة بعث بها إلى الأقارب والأصدقاء ومشاهير عصره من أدواق وكونتات وأمراء.

ويشيد المتخصصون بإعجاز مايكل أنجلو فى نحت تماثيل تعبر عن معان مجردة كالليل والنهار ووقت الشفق والفجر، وبعضها كان يزين قبور آل مديتشى. ومن بين أعماله تمثال لم يكتمل عن «عبد يحتضر». وقد انفعل الشاعر هرمان كازاك عندما شاهد هذا التمثال، فنظم



«الطوفان» على سقف كنيسة سيستينا - مايكل أنجلو

قصيدة تصور فيها العبد التعيس يشكو حاله إلى صانعه مايكل أنجلو، ونسوق هنا بعضا من معانى القصيدة بتصرف:

«يا مَنْ نحتَ من
الصخر
بعضا فى جسدى
أبهلُ إليك
اعفنى من الرخامِ
من قالب الألمِ
أنا أبغى الحرَاك
أطلقنى
الأغلالُ هى سأمى
أيها الروحُ المبدعُ
صُغْ نفسى ثانية
صُغها من معدنِ جلَدى
اعفنى من طوق الحديدِ
ولا تَسَلْ النخاسين عن ثمَنى
ثم سلْ عن صَبِيَّةٍ
كانتْ لىَ غايةَ الأملِ
أتراها بيعتْ فى الهندِ
أم سباها ملوك العجمِ؟
لكمْ أتمنى
لعربى المُستباح للأمَم
أن ينصهرَ فى الرُخَامِ
يتوارى كالجنينِ فى الرَحِمِ
أيها الروحُ الذى سوى تمثالَى
حَطِمْنى إلى رمادٍ - أحلنى إلى تراب
أعدنى إلى العَدَمِ



«عبد يحتضر» تمثال رخام - مايكل أنجلو



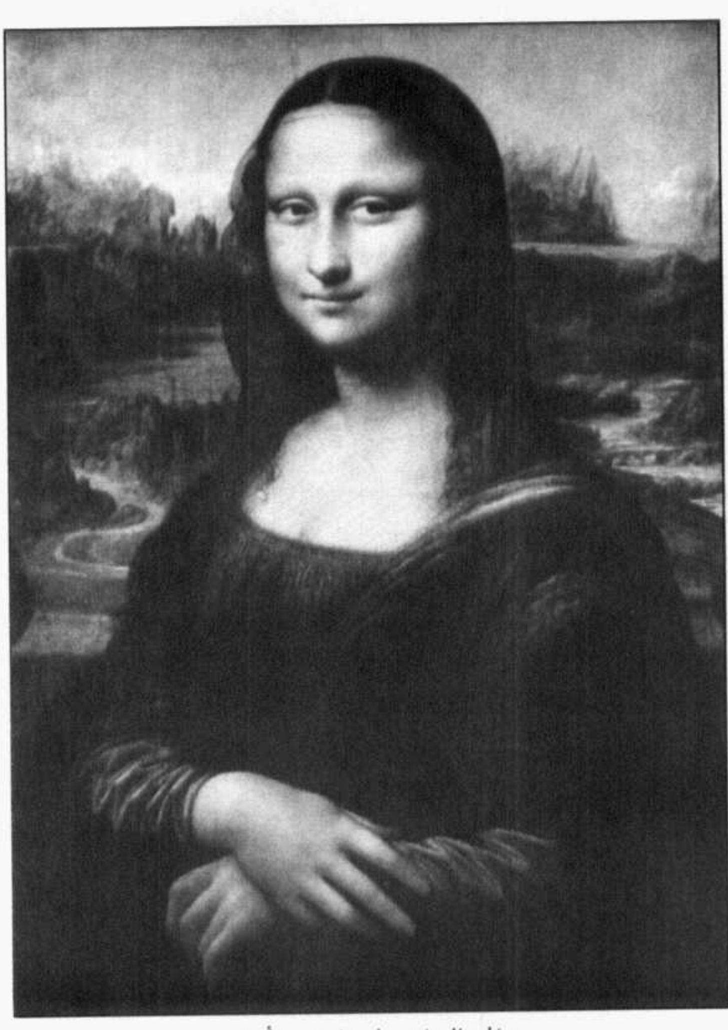
الحجرُ ينخُرُ عظامى
وقلبُك كالحجرِ
عنى فى صَممٍ
ارمنى فى الأعمَاقِ هيا
ألقِ الجبال على كتفيا
ثم وارنى الترابَ
فأنا الميتُ حيا».

سقف كنيسة سيستينا – مايكل أنجلو

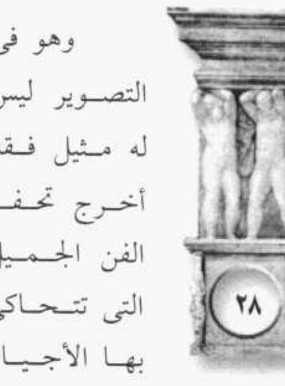


ليوناردو داڤنشى:

أما ليوناردو **داڤنشى** فهو خير من يمثل العـصر الذهبى للنهضة الفنية فى إيطاليا. فلقد كان ليوناردو عالمًا متعدد المواهب والاهتمامات، وكان صاحب نزعة علمية تجريبية سبق بها الكثيرين من علماء عصره. وقد ترك **داڤنشى** لنا عشرات من المخططات والتصميمات الهندسية والمعادلات الرياضية. وله فوق ذلك بحوث فى عوالم الطيران والتـشريح، كما أنه صمم آلات لضخ الميـاه بالآلات الرافعة، ووضع أسـسا لإقـامـة التعـزيزات العـسكرية الدفاعـيـة، مع تصورات لمعـدات ومقاتلات برية شبيهة بالدبابات الحديثة؛ هذا إلى جانب بحوث أخرى فى عالم الطيور والتشريح.

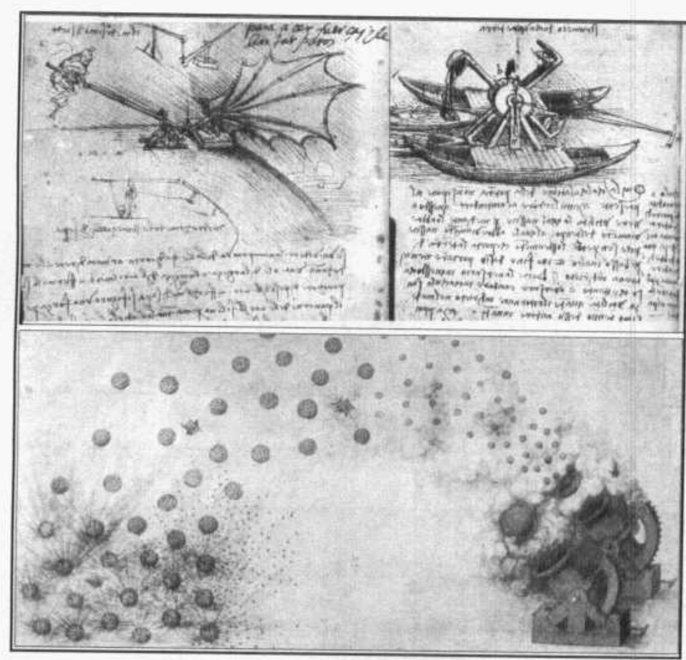


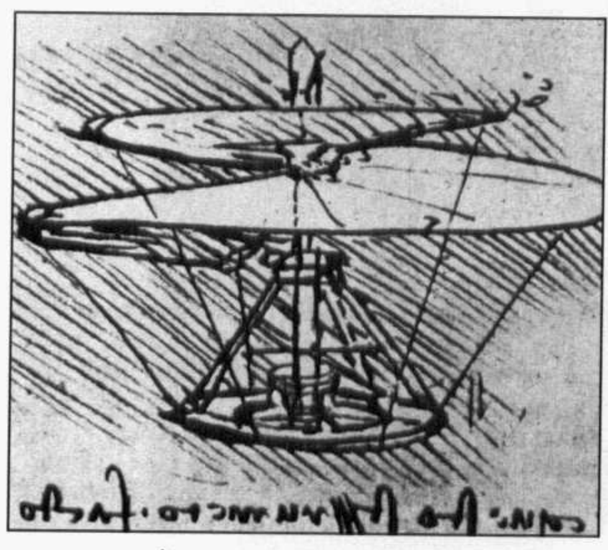
«الموناليزا» - ليوناردو داڤنشى



وهو فى التصوير ليس له مثيل فقد أخرج تحفة الفن الجميل التى تتحاكى بها الأجيال وتحاكيها وهى لوحة الجيوكاندة أو الموناليزا، وأيضا لوحة «ليديا وطائر البجع». وكانت أعماله تثير إعجاب الخاصة والعامة ومن بينهم أستاذه أندريا فروشيو الفلورنسى. وقد طلب منه الأمير فرنسيسكو سفورزا سيد ميلان أن يصنع له تمثالا، إيمانًا منه بأن ليوناردو هو أعظم نحاتى عصره. واستضافه مشاهير السياسة والحكم فى قصورهم، من أمثال لودفيكو إل مورو (Il Moro) والقيصر سيزار بورجيا، والملك الفرنسى فرانسيس الأول.

ورغم كل هذا كان ليوناردو إنسانا متواضعًا، ووصف نفسه على أنه «ليس مستحقًا لأن يسمى أديبًا» (Omo Sanza Lettere)؛ ومن أقواله المأثورة: «الحياة هى الفن، والفن مسرح الحياة».


رسوم لآلات حربية - ليوناردو دافنشى

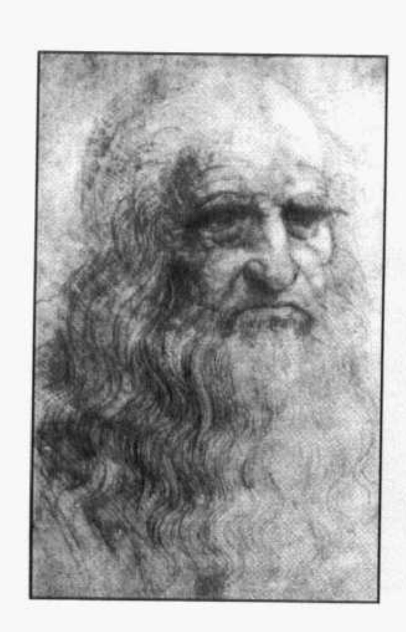

رسم لمروحية - تصميم ليوناردو داڤنشى



رافايل وتتيان:

وســجل أهل الفن فى إيطاليــا لا يحــصى ولا يعد فى الــقرنين الخــامس والسادس عشــر؛ فإلى جانب الفنانين الذين وردت سيرتهم وأعــمالهم كان هناك عمالقة آخرون من أمثــال رافايل (توفى ١٥٢٠م) صاحب لوحة «مادونا»، والذى كــان يعــمل مع مــايكل أنجلو فى رومــا. وهناك أيضــا جيــورجيــونى، وباولو ڤيــرونيزى، وتنتــورتى، وتيتيــان الذى أبدع فيــما أبدع لوحــتين بعنوان «الحب المقدس»، و«الحب المدنس». ولقد أثارت لوحات تيتيان الإمبراطور شارل الخامس وطلب منه أن يرسم له صورة بريشتــه، رافضًا أن يقوم أحد غــير تيتيان من كبــار الفنانين بتصوير ملامح صاحب الجلالة.

ولقد شارك هؤلاء الفنانــون فى تجميل قصور أمــراء عصرهم لتحل محل القــلاع والحصون الخشنة التى كانت سائدة فى العصور الوسطى؛ وخير مثال نجده فى قصر آل مديتشى فى فلورنسا، وقصر فــارنزى فى روما، وڤيلا البابا يوليــوس الثالث لإقامــته الصيــفية والمعــروفة باسم «ڤيلا يوليانا». وفى سنة ١٤٨٤م اكــتمل بناء بازيليكا سان مارك فى البندقــية، ولعبت عبقــرية المعمارى الفنان بلليني فى مزج خطوط العمارة الــبيزنطية بالطرز الكلاسيكية ليخرج هذه التــحفة الفريدة فى العمارة على مر العصور.



ليوناردو دافنشي بريشته

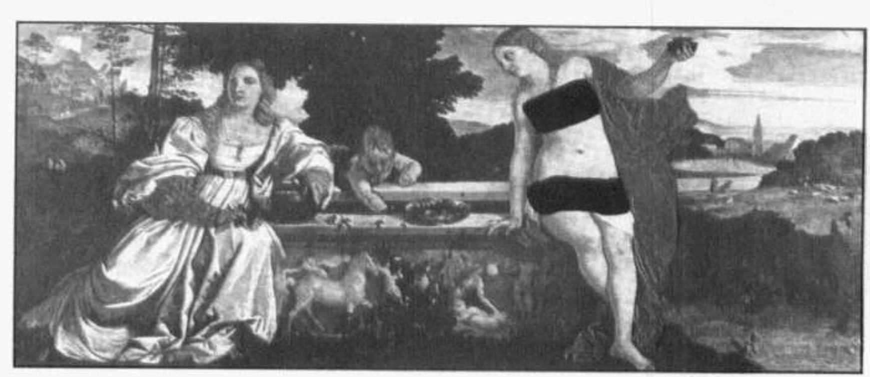


الفصل الثالث
النهضة فيما وراء جبال الألب

لم تكن بلدان أوروبا شمالى جبال الألب على صلة مباشرة بالتراث اليونانى الرومانى؛ ولذا فإنها لم تشعر بالقطيعة مع الماضى الكلاسيكى كما كان يشعر الإيطاليون طيلة العصور الوسطى. على أنه مع انتعاش روح النهضة فى مختلف المناحى فى إيطاليا، كان لابد لشعوب ما وراء الألب من ألمان وفلمنكيين وبرتغال وهولنديين وإنجليز وفرنسيين أن ينفعلوا بهذا التيار الإنسانى الدفاق. ولقد كان الفرنسيون أول شعوب أوروبا فى الأخذ بروح النهضة بعد الإيطاليين؛ وذلك نتيجة لاحتكاك الفرنسيين بالإيطاليين من خلال حملات الملوك الفرنسيين على إيطاليا على عهد شارل الثامن ولويس الثانى عشر. وقد أخذ الملوك الفرنسيون المبادرة عندما استعانوا بالمعماريين والفنانين الإيطاليين فى تشييد قصورهم الفاخرة على الطراز الكلاسيكى المتجدد الذى كان سائداً فى إيطاليا؛ فلقد استقدم الملك فرنسيس الأول



«مادونا» - رفايل سانزيو



الحب المقدس والحب المدنس - لوحة بريشة تيتيان

العبقرى ليوناردو **داڤنشى** ليستفيد من خبراته فى مختلف المجالات، وأنعم عليه بمنزل ريفى على مقربة من مدينة أمبواز، حيث قضى ليوناردو بقية حياته فى آخر المطاف.

وانتشرت بعد ذلك عمارة «الشاتو» (Chateaux) فى منطقة اللوار فى فرنسا بفعل المؤثرات الإيطالية لتحل محل قلاع الماركيزات والبارونات الوسيطة. ومع هذا التطور أخذت منازل بسطاء الناس القديمة فى الاختفاء لتحل محلها بنايات من الخشب ذات الطوابق المتعددة، كما شهدت المدن قيام المجالس البلدية ونقابات الحرفيين ومجالس الرعاية الاجتماعية وهيئات المطافى والدفاع المدنى، ثم ظهرت المصارف والبنوك لتنقل أوروبا من نظام بدائى شبيه بالمقايضة إلى انفتاح اقتصادى متطور.

رابليه:



إليزابيث الأولى

وفى مجال الآداب أخذ الفرنسيون بأسباب الحركة الإنسانية، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه فى فرنسا: فرنسوا رابليه (١٤٩٤-١٥٥٣م)؛ وبيير رونسارد (١٥٢٤-١٥٨٥م). وكان رابليه فى صدر شبابه قد انخرط فى سلك الرهبانية ثم ما لبث أن هجرها ليدرس الطب فى جامعة مونبلييه (١٥٣٠م)، حتى حصل على درجة الدكتوراه سنة ١٥٣٧م. ولقد أعجب به أمير ولاية لانجى (Lan-gey) وليم دى بيلاى وشقيقه جان؛ وجعله الأخير طبيبا خاصا له، ثم قاما سويا بزيارة إلى إيطاليا.

وفى سنة ١٥٣٢م أخرج رابليه كتابا بعنوان (Pantagurel) (بانتاجوريل) يدور حول تنشئة الأطفال الصغار ودور الأم فى تربيتهم، وهى لا تخلو من السخرية من أساليب معاملة الصغار فى عصره.

وفى سنة ١٥٣٤م أخرج كتابا آخر بعنوان «جارجانتوا» (Gargantua) يهاجم فيه علماء اللاهوت الرهبان، وما يروجونه بين الناس من وساوس وشعوذات لا تتفق مع العقل السليم.

وأتبع هذا بكتاب ثالث بعنوان «دير ثيليما» يهاجم فيه الرهبنة والتبتل (عدم الزواج)، الأمر الذى أثار عليه حفيظة الكثيرين فى الدوائر الفرنسية المحافظة. ولما أن أخرج «الكتاب الثالث»



(Tiers Livre) سنة ١٥٤٦م يمجد فيه سلطان العقل ومنهج الشك قبض عليه وأودع السجن، ولكنه هرب. وفى سنة ١٥٥١م نشر «الكتاب الرابع» (Quart Livre) الذى كان أكثر جرأة من مؤلفاته السابقة فى التنديد بالمؤسسات الدينية القائمة آنذاك. وقد ختم رابليه حياته الأدبية بكتابين أخيرين هما: «العاصفة فى البحر»، و«الجزيرة المدوية» (L'Isle Sonante) وفيهما دفاع عن حرية إرادة الإنسان فى تقرير مصيره بدلا من القدرية والاتكالية التى كان يبشر بها أهل الدين فى العصور الوسطى، هذا إلى جانب هجوم شديد على السلطة البابوية.

رونسارد:

أما پير رونسارد، فقد خدم فى بلاط الملك الفرنسى، وقام برحلة إلى أسكتلنده. وكان قد تتلمذ على يد أستاذ مرموق اسمه دورات (Dorat) فى الكوليج دى كوكيت. وقد نبغ رونسارد فى الشعر، فنظم العديد من الأناشيد الغنائية فى مديح فرنسا، وقد تأثر فيها بالشاعرين الرومانيين هوراس وكاتولوس. وفى سنة ١٥٥٢م أصدر ديوانا بعنوان «أشعار فى الحب» مهداة إلى سيدة تدعى كاسندرا. وقد اعترف الجميع بعبقرية رونسارد الشعرية وتوج «أميرا» لشعراء عصره. وقد أحاطه الملك الفرنسى شارل التاسع برعايته، وكذلك فعلت شقيقة الملك مارجريت. ولرونسارد قصائد أخرى تحث الرعية على الولاء لحامل التاج ورمز البلاد، ولعل هذا ما قربه من البلاط الفرنسى ثم البلاط الإنجليزى؛ فلقد أعجبت به الملكة مارى ستوارت وأمرت بصرف معاش سنوى له. كذلك بعث رونسارد بعدة قصائد للملكة إليزابث الأولى، التى لقيت إعجابا زائدا فى بلاط لندن. ورغم أن رونسارد كان يعانى من اضطراب فى سمعه يصل إلى حد الصمم، إلا أنه ظل ينظم القصيد حتى آخر حياته، ومن أبياته الشهيرة: «حتى ولو شاخت بكِ السنونُ . . حبيبتى!» (Quand vous serez bien vieille).

روجربيكون:

وفى إنجلترا كان العالم روجر بيكون (١٢١٠-١٢٨٣م) يمثل إرهاصا مبكرا للروح الإنسانية مثلما كان دانتى فى إيطاليا. فلقد تصدى روجر لفضح جهالة عصره، ودعا إلى تحرير العقل من أغلال الكهانة والسحر والخرافة. وروجر بيكون هو الذى شن هجوما شرسا على الفيلسوف أرسطو متهما إياه بالدوغماتية، ومعيبا على أتباعه الانصياع الأعمى لمقولاته لا لسبب إلا لأنه قد مضى فى تاريخ الفكر على أنه «المعلم الأول». ثم هاجم بيكون ما أسماه بـ«أصنام» العقل من أوهام وتقاليد وغرور بعض العلماء والمتفلسفين. كما تنبأ بآفاق عصر جديد تسود فيه الآلة ومراكب الفضاء لتغيير طرائق الناس برا وبحرا وجوا.



تشوسر:

ومن بعده جاء جيوفرى تشوسر (١٣٤٠-١٤٠٠م)، الذى كان يعمل فى خدمة البلاط الملكى فى لندن، كما شارك فى حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ووقع أسيرًا فى أيدى الفرنسيين وافتدى سنة ١٣٦٠م. وقد قام تشوسر بعدة زيارات لإيطاليا وفلاندرز، والتقى بمشاهير الأدباء والشعراء من أمثال بترارك وبوكاشيو وفرواسار، وتأثر بهم فى كتاباته. وكان تشوسر واسع الاطلاع على الآداب القديمة وتأثر كثيرا بالشاعر الرومانى أوڤيد (٤٣ ق م - ١٨م).

وجيوفرى تشوسر هو أعظم شعراء عصره، وهو الذى صاغ اللغة الإنجليزية بالصيغة التى نعرفها اليوم. وله أعمال كثيرة: «الوردة»، و«الشكايا الثلاث»، و«شكوى الملهوف للرحمة»، و«وفاة بلانش»، و«ترويلوس وكرسيدا»، و«بيت الشهرة»، و«أسطورة النساء الفضليات»؛ ثم «حكايات كنتربرى». وفى «حكايات كنتربرى» (Canterbury Tales) أقاصيص كثيرة وممتعة كان يتسلى بها الحجاج الإنجليز الوافدون من كل صوب لزيارة مقبرة توماس بيكيت كبير أساقفة إنجلترا الذى كان قد اغتيل فى قلب الكاتدرائية على يد رجال الملك هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م). وقد تأثر تشوسر فى حكاياته الممتعة بالكاتب الإيطالى بوكاشيو صاحب «الديكامرون»، وأيضا بألف ليلة وليلة الوافدة على الصالونات الأدبية من الشرق. وهذه الحكايات تعرض لحياة ونوادر بسطاء الناس ومشاكلهم اليومية والبيتية، شاملة فيما تشمل الفرسان وأهل الريف والطباخين ورجال القانون والرهبان والتجار والأطباء والبحارة والراهبات فى شاعرية فذة تأثر بها أدباء إنجلترا فيما تلا من عصور.

توماس مور:

ومن الأعلام الذين برزوا فى إنجلترا بعد تشوسر، كان السير توماس مور (١٤٧٧-١٥٣٥م) ثم فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م)، حتى نصل إلى العبقرى وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م):

كان توماس مور دارسًا نهما للآداب الكلاسيكية، وقد عكف هو وصديقه إرازاموس الهولندى، الذى كان كثير التردد على دار مور والإقامة فيها، على ترجمة أشعار لوسيان (القرن الثانى م). وكان هذا العالم الإنجليزى شديد التواضع ويعيش عيشة بسيطة قريبة إلى حياة «الرواقيين» القدامى. وقد كتب تاريخا عن الملك ريتشارد الثالث أفاد منه وليم شكسبير كثيرًا فى مسرحيته عن نفس الملك. وفى ديسمبر ١٥١٦م انتهى مور من كتابة كتابه الشهير بعنوان «يوتوبيا»



باللغة اللاتينية. واليوتوبيا تعنى «المدينة الفاضلة»؛ وهى مدينة مثالية جاءت على منوال «جمهورية» أفلاطون. وأهل هذه المدينة محصنون ضد رذائل أوروبا المعروفة، فأهلها جميعا يشاركون فى إنتاج طعامهم دون تفرقة، وهم يتمتعون بنفس الشركة «الطوباوية» فى المسكن والتعليم والرعاية الصحية، وقانون المدينة يقدس الحريات ويضع صالح المدينة العام فوق المصلحة الفردية الأنانية. والحق أن توماس مور كان مفكرا صادقا مع نفسه، فلقد كان نشطا معتدل المزاج ويحترم الدفء الأسرى.

غير أن هذا العالم الجليل سرعان ما اصطدم مع ملك إنجلترا الأبد هنرى الثامن، الذى كان قد تزوج ست مرات وأعدم زوجاته الواحدة تلو الأخرى، ولما أن تصدى توماس مور لهذا الملك السادى المزاج، أرسل به الملك إلى برج لندن الرهيب تمهيدًا لإعدامه. وفى زنزانته سجل توماس مور خواطره على قصاصات من نفاية الورق خطها برماد الفحم وبعث بها إلى ابنته الحبيبة مرجريت وبر. وتفصح هذه الرسائل عن شجاعة نادرة تحلى بها الرجل حتى عندما جاء الجلاد لإعدامه (١٥٣٥م).

فرنسيس بيكون:

أما فرنسيس بيكون فقد شن هجوما على فلسفة العصور الوسطى وعلى الجمود العقلى الذى يكبل التقدم العلمى. وهو لا يقبل «بالماهيات القبلية» (A Prioris)، وإنما يؤمن بضرورة تحرير العقل تمامًا من المسلمات المتواترة قبل التنقيب عن الحقائق من خلال الملاحظة والتجريب العلمى للوصول إلى النتائج العلمية عن طريق الاستقراء.

وبيكون هو الذى وضع كتابه الأشهر «المنهج الجديد» (Novum Organum) ١٦٢٠م، والذى راح يفند فيه



فرنسيس بيكون



منهاج أرسطو فى البحث عن الحقيقة. وهو صاحب كتاب «أطلنطا الجديدة»، وهى أيضا جزيرة مثالية أشبه ما تكون بمعبد للعلم، يعيش عليها الجميع فى سلام ووئام، ينعمون بمنجزات بحوث علمائهم فى شتى المجالات الزراعية والصناعية، دون أن يسمحوا للعالم الخارجى بأن «يلوثهم» ماديا أو معنويا. وأهل الجزيرة عباقرة إلى حد «تخليق فصائل جديدة فى عوالم الحيوان والنبات»، ولديهم «أفران حرارية تعطى حرارة تعادل طاقة الشمس»، ولديهم «ينابيع خاصة» يطلقون عليها اسم «عيون الجنة»؛ لأن مياهها تعالج جميع الأمراض وتطيل الأعمار.

وقد أنتج بيكون إلى جانب ذلك عدة مقالات هامة يعالج فيها قضية «الخير والشر»، وسبل «تقدم العلم».

يذكر أن بيكون كان شديد الإسراف وكثير الاستدانة من الأصدقاء، الأمر الذى عرضه للمحاكمة والسجن فى برج لندن.

شكسبير:



وليم شكسبير

أما وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) فهو العبقرى الذى جعل من الكلمة نغما موسيقيا، ومن المسرحيات الشعرية لوحات لا مثيل لها من قبل أو من بعد. ولقد جنت عبقرية شكسبير على كل معاصريه من الشوامخ، إذ بدا الجميع بجواره كالأقزام. وقد ابتدع شكسبير لغة خاصة صارت تقرن باسمه على مر العصور. ولقد عمل شكسبير كممثل ومبدع للمسرحيات وصاحب مسارح أيضا. وقيل عنه أنه كان يمتلك المقدرة على ملاحظة أكثر الأشياء تفاهة فى حياة الناس جنبا إلى جنب مع أشدها خطورة. وهو خبير بالسلوك



الإنسانى المتقلب بين الوفاء والغدر، وما يترتب على ذلك من عواقب إن سلبا أو إيجابا. وفى الجانب العاطفى يعالج شكسبير قضية الصراع بين القلب والعقل، وما ينجم عن طغيان العاطفة على الرشد. وهو يعطى شخوص رواياته كامل الحرية فى اختيار مصائرهم، وإن كان واعيا طيلة العرض أن أمور هذه الدنيا تسير وفق الناموس الإلهى. وروايات شكسبير تروق لجميع الأذواق والمستويات، وخيال الشاعر العبقرى شمولى محيط لا تجده فى أى شاعر آخر.

ولقد تأثر شكسبير بمسرحيات الشاعر الرومانى بلاوتوس (٢٥٤-١٨٤ق م) تأثرا واضحا. ولقد أمتع شكسبير العالم بروائع «كوميديا الهفوات» (١٥٩٢م)، و«تيطوس أندرونيكوس» (١٥٩٣م)، و«روميو وجوليت» (١٥٩٥م)، و«حلم ليلة صيف» (١٥٩٧م)، و«تاجر البندقية» (١٥٩٧م)، و«هنرى الرابع» (١٥٩٧م)، و«زوجات وندسور المرحات» (١٦٠٠م)، و«هاملت» (١٦٠٢م)، و«عطيل» (١٦٠٥م)، و«الملك لير» (١٦٠٦م)، و«ماكبث» (١٦٠٦م)، و«كوريوليانوس» (١٦٠٧م)، و«أنطونى وكليوبترا» (١٦٠٧م).

ولقد ترجمت أعمال شكسبير إلى لغات العالم، الذى أجمع نقاده على أن وليم شكسبير يقف فريدا كالتاج فى مفرق الشعراء فى كل العصور.

إرازموس:

وصلت الروح الإنسانية إلى الأراضى المنخفضة، وخير من يمثلها الهولندى دزدريوس إرازموس (١٤٦٦-١٥٣٦م)، حيث تلقى إرازموس تعليمه فى مدينتى دڤمتر (Devemter) وستاين (Steyn)، ثم قصد إلى باريس ولوڤان وإكسفورد وكمبردج وبازل وڤربورج وعدة مدن إيطالية يبحث حينا، ويقوم بالتدريس فى جامعاتها أحيانا أخرى. وكان صديقا مقربا للسير توماس مور الإنجليزى، وكان ينزل ضيفا عليه فى داره فى لندن.

ولقد ذاعت شهرة هذا العالم الهولندى فى كل الأروقة العلمية الأوروبية، وتابع الناس هجومه الساخر على مفاسد الكنيسة الرومانية ومثالب الرهبنة فى كتاب بعنوان: «مدح الحُمق» (Laus Stultitiae) الذى ظهر سنة ١٥١١م. وفى كتابه الآخر الأكثر جرأة بعنوان «حديث من القلب» (Colloquia Familiaria) يخاطب معاصريه بوضوح وبساطة أن يحرروا عقولهم من الشعوذة والخزعبلات وأن ينتبهوا إلى تحديات العصر وروحه الجديدة. وقد سجل إرازموس كل مؤلفاته بلسان لاتينى رصين إسهاما منه فى إحياء لاتينية العصر الكلاسيكى الخالية من التبربر

والسوقية. كما ترك إرازموس أكثر من ثلاثة آلاف رسالة تفصح عن روح حرة مستقلة وحس إنساني واعٍ محبٍ للمعرفة والحق، وممن تأثروا به كان وليم شكسبير نفسه.

سرڤانتيس:

أما في إسبانيا فإنا نلتقي بروائي فذ هو ميجيل دي ساڤدرا سرڤانتيس (١٥٤٧-١٦١٦م). ولد سرڤانتيس لأب كان يمارس الطب والجراحة وإن لم يكن طبيبا مؤهلا، كما كانت الحال في كل بلدان أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد تلقى بعض الدروس على يد واحد من تلاميذ إرازموس الهولندي واسمه لوبيز ده خويوس. وكان سرڤانتيس قارئًا نهما في مختلف فروع المعرفة، كما كان كثير الترحال والسفر خاصة إلى إيطاليا. وقد شارك سرڤانتيس في معركة لبانتو البحرية ضد الدولة العثمانية، وفيها أصيبت يده اليسرى بتشويه شديد وصل إلى العاهة، كما شارك مع أخيه رودريجو في معارك أخرى في جزيرة كورنو ونڤارينو، حتى وقع أسيرًا في أيدي العثمانيين وسيق إلى الجزائر سنة ١٥٧٥م، وقد حاول الهروب عدة مرات ولكنه فشل في جميع محاولاته حتى دفعت له الفدية وأطلق سراحه سنة ١٥٨٠م.

وفي مدريد أخرج أولى رواياته بعنوان «لا جاليـاتا» (La Galeata) مع بعض الكتابات الأخرى الأقل شأنا. ولقد عاني سرڤانتيس كثيرا من الفقر، وضاعف من تعاسته أنه تزوج من فتاة أصغر منه بثمانية عشر عاما. وقد شغل عدة وظائف فكان جامعا للضرائب ثم مسئولا عن الإمدادات للأرمادا (الأسطول) الإسباني. وعندما ازدادت ديونه وعجز عن سدادها زج به في السجن أكثر من مرة.

وفي سنة ١٦٠٥م وهو يقيم في بلدة ڤاللا دوليد أخرج الجزء الأول من رائعته «دون كيخوته» (Don Quixote). وقد حققت له هذه الرواية شهرة لا تضارع، وإن لم تعد عليه بعائد مادي يذكر. وأتبع هذا العمل بعدة قصائد رمزية ساخرة وبعض المسرحيات القصيرة حتى أنتج الجزء الثاني من «دون كيخوته» الذي نشر بعد وفاته بعام (١٦١٧م)، وكان قد انتهى من مقدمته قبل وفاته بأربعة أيام فقط (توفي في ٢٣ أبريل ١٦١٦م، وهو نفس اليوم الذي توفي فيه وليم شكسبير).

وتعد رواية «دون كيخوته» عملا متميزا بكل المقاييس، فهي تحكي حكاية رجل تقادم في العمر ازدحم عقله بقراءات مكثفة في أدب الفروسية، أصابته وهو في خريف العمر بهوس أشبه ما

يكون بالاستحواذ الذى ألقى به وبخياله خارج دائرة الصواب. وعلى هذه الحال من «المتاهة» أسرج دون كيخوته جواده الهزيل القمىء بمعونة تابعه الوفى سانكو پانزا، وقد عقد العزم على محاربة الظلم على وجه الأرض كلها دون توقف عند حدود مكانية أو مسافات زمنية.

ويقصد سرڤانتيس من وراء هذا العمل الفذ أن يجسد فكرة الصراع بين عالم المثالية والواقع المر للناس، وبين الوهم والحقيقة، وبين شطحات العقل فى أضغاث الأحلام وعافية التفكير، كل هذا من خلال مواقف إنسانية طارئة وطريفة يفتعلها دون كيخوته فى أغلب الوقت، أو تصب على أم رأسه فى أوقات أخرى. ومن أبدع ما نطالع فى هذا العمل الإبداعى تلك الحوارات بين الفارس التعيس وتابعه الأكثر تعاسة سانكو پانزا. وهنا وهناك تتزاوج الكوميديا بالتراچيديا بتكنيك يخلب الألباب ويمتع الخاصة والعامة جميعا.

ولقد قوبلت «دون كيخوته» بحماس منقطع النظير فى كل بلدان

يوهان جوتنبرج مخترع الطباعة وأول طباعة لصفحة من الإنجيل

أوروبا، ورأى فيهـا الإنجليز والفرنسيون والألمـان دلالات ملحمية شبـيهة بملاحم هوميروس، إلى جانب مواقف ولقطات رومانسية تحرك وريد القلب.

ولقد كانت «دون كيخوته» مصدر إلهـام الكثيرين من رجالات الأدب فيما بعد، من أمثال هنرى فيلدنج، وستـيرن، وسمولت، وشارلس ديكنز، وفلوبير، ومارك توين، وديستوفسكى، وكافكا.

جوتنبرج:

وعندما نصـل إلى ألمانيا نجد أنهـا قد قـدمت الفضل الأكبـر فى إنماء روح النهضـة وإذكاء وهجها، وذلك باختـراع الطباعة، وصـاحب هذا الاختراع الفذ هو يوحنا جوتنبـرج من بلدة مينز الذى توصل إلى هذا الإنجـاز سنـة ١٤٥٠م. وترتبط الطبـاعـة بقـصـة صناعـة الورق التى كـان الأوروبيون قد تعلمـوها من العرب الذين كانوا بدورهم قد تعلمـوها من أهل الصين، فلقد نشأت صناعة الورق فى الصين منذ القرن الثـانـى قـبل الميـلاد. وفى سنة ٧٥١م عندما كان الصينيون يشنون حملة على مدينة سمرقند، نجحت الكتائـب العربية فى رد الصـينيين على أعقابهم وأوقـعت بعدد منهم كـأسـرى حـرب. وكـان من بين الأسـرى الصـينيين بعض الأفـراد الذين كـانوا يعـملون فى بلادهم بصناعـة الورق، ومن هؤلاء تعلم العـرب سـر الصنـاعـة. ثم نقل الأوروبيـون صناعـة الورق عن العـرب من عـدة قنوات أهمـهـا المصانع التى اسـتولوا عليـها أثناء حرب «الاسترداد» الإسبانية.



ألبرت دورير

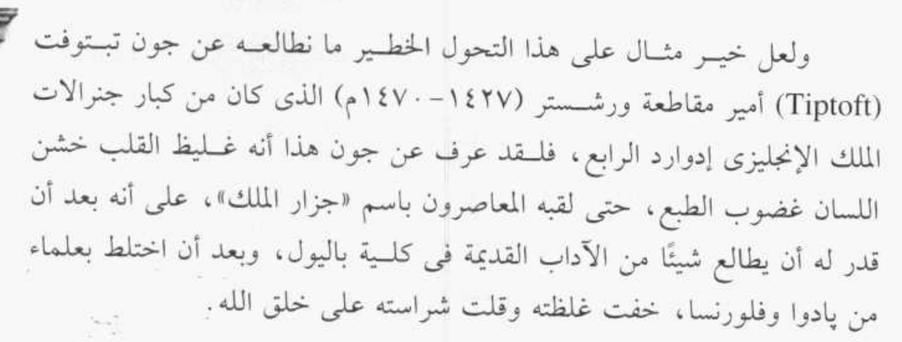


بعد هذا صار الإيطاليـون أمهر صناع الورق فى أوروبا، وعنهم نقل الألمان حتى خـرج جوتنبرج باختـراعه للطباعـة. وقد وصلت الطباعـة إلى إيطاليا سنة ١٤٦٥م، وإلى فرنسا سنة ١٤٧٠م، وإلى إنجلتـرا سنة ١٤٧٧م، وإلى استكهولم سنة ١٤٨٣م، ثم إلى مدريد سنة ١٤٩٩م. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان قد تمَّ طباعة قرابـة تسعة ملايين من الكتب جلها من التراث الكلاسـيكى. ويعترف الجميع بفـضل الألمان فى هذا الصعيد، حتى أن الطبـاعة باتت تعرف باسم «الفن الألمانى». هذا، وقد انتـشر الطباعون الألمان وناشـرو الكتب فى كل العواصم الأوروبية يؤسـسون دور المطابع ويسوقون ما أفرزته المطابع من مطبوعات. ومن المشاهير فى هذا كان كوبرجر من بلدة نورمبرج، وفروبن من بازل، وألبرت دورير (Durer)، وآل فيشر.

كما أبدع الألمان فى مـجال التصوير، ومن الأسماء اللامـعة كان الفنان هولبن (Holbein) الذى استقدمه البلاط الملكى فى لندن للإفادة من فنه ذائع الصيت.

ومع ازدهار الطباعة باتت القـراءة فى متناول الجميع، وأخذت اللغـات المحلية الوطنية تحل محل اللسان اللاتينى الذى كانت له الهيمنة حتى ذلك الوقت. وجاءت ترجمات الفلاسفة القدامى عن العربية هـى وشروحها لتصل أهل عـصر النهضة بالتـراث القديم بصلة مباشـرة. فلقد أفادت الجامعـات بوجه خاص من هذه الترجـمات، ومع اختراع الطباعـة صار اقتناء الكتب أمرا مـيسرا للطلاب بعد أن كـانوا يعانون الأمرين من فك طلاسم المخطوطات، ناهيك عن أسـعارها التى لم تكن فى مقـدورهم. ويذكر عن الإيطالى ألدوس مـانوتيوس (١٤٤٩-١٥١٤م) أنه أول من أسس دارا للطباعة فى مدينة البندقيـة، ويقول فى مذكراته أنه كان أشد تلاميذ عصـره تعاسة بسبب سوء أحوال الكتيبـات المدرسية السائدة فى صدر شبابه وخاصـة فى خطها الملغز الذى ينفر الدارس من الدراسة؛ ولذا فإنه قـد نذر نفسه وجهده لإخراج طبـاعات أنيقة للكتب المدرسيـة حتى لا يصاب التلامـيذ والطلاب بنفس السأم الذى كـان هو قد قاسى منه الأمـرين. كذلك أخرجت داره عـمد الأعمال الكلاسيكية، وصار فى مقدور البندقى العـادى أن يستمتع بقراءة إلياذة هومر وهو يتهادى فى جندوله على سطح مياه البندقية فى حال من الاسترخاء والمتعة الخلوية العقلية.

وقد كان للطباعـة فضل آخر فى التخفيف من غلظة النبالة الأوروبية، إذ صـار من التقاليد المحـمودة للمـاركيـزات والأدواق والبارونات أن يلتـحقـوا بالجـامعـات، وأن يقبلوا على اقـتناء المطبوعات، وأن يزينوا قصورهم بلوحات فنية وتقنيات أثرية. وهكذا انتهى العصر الذى كانت فيه الكتابة حكرا على رجال الدين والمحترفين من الكتبة.



ولعل خيـر مثـال على هذا التحول الخطـير ما نطالعـه عن جون تبـتوفت (Tiptoft) أمير مقاطعة ورشـستر (١٤٢٧-١٤٧٠م) الذى كان من كبار جنرالات الملك الإنجليزى إدوارد الرابع، فلـقد عرف عن جون هذا أنه غـليظ القلب خشن اللسان غضوب الطبع، حتى لقبه المعاصرون باسم «جزار الملك»، على أنه بعد أن قدر له أن يطالع شيئًا من الآداب القديمة فى كلـية باليول، وبعد أن اختلط بعلماء من پادوا وفلورنسا، خفت غلظته وقلت شراسته على خلق الله.

ولقد نبغ الألمان أيضا فى الموسيقا، وكما صارت الطباعة «فنا ألمانيا»، باتت الموسيـقا خاصيـة ألمانية بالمثل. هذا إلى جانـب لفيف من العلماء الألمان المبـرزين فى فروع الفلك والرياضيات والجغرافيـا والتاريخ. ومن الأعلام الألمان نيقولاس كربز (Krebs) (١٤٠١-١٤٦٤م) الذى عثـر على مسرحـيات بلاوتوس مطمورة فى خـزائن أحد الأديرة، هذا إلى جانب كـتاب له بعنوان: (De Docta Ignorantia) يهاجـم فيه رجـعيـة رجال الدين الألمان ويسـخر من الجـهالة والغيبيات الخرافية. ويرى بعض النقاد أن كلا من العالم البولندى كوبرنيكوس والفيلسوف الفرنسى ديكارت والفيلسوف الألمانى هيجل قد تأثروا بآرائه.

لقد آتت النهضـة أكلها، وغدت الطبيعـة مصدر إلهام للعلماء كى يفـتشوا فى جوفهـا عما تخفيه من أسرار، ففى الكيمياء مثلا باتت محاولات القدامى فى تحويل المعادن الرخيصة إلى معدن الذهب من سقط المتاع، وأقـبل الكيميائيـون الجدد على معاملهم للبحـث عن العقاقير وتخليـقها لمداواة مختلف الأمراض. ومن هؤلاء النابهين الطبيب الفلمنكى أندرياس ڤيزاليوس الذى استقدمه الملك الإنجليزى شارلس الثانى ليصبح طبيبه الخاص. وفى سنة ١٥٤٣م نشر ڤيزاليوس كتابا حجة عن «بنية الجسم الإنسانى» (On the Structure of the Human Body).

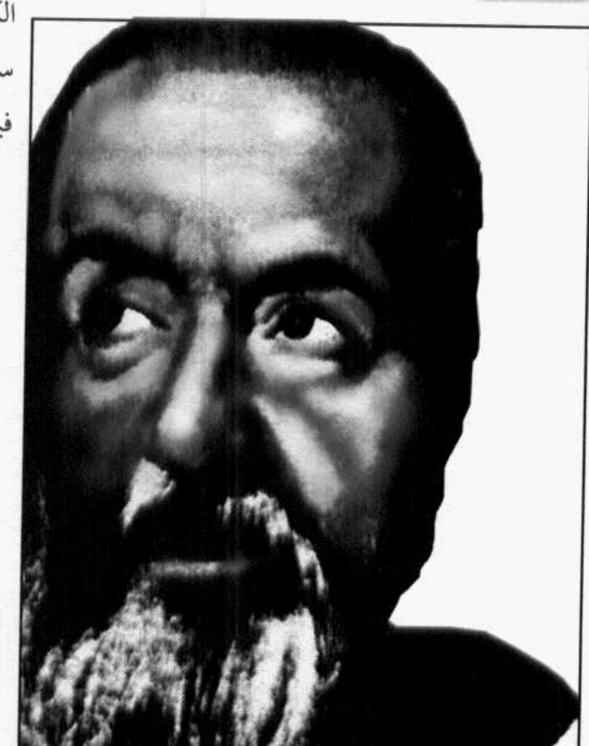
كوبرنيكوس:

ومن الأشياء التى تستوجب التسجيل أنه فى نفس العام الذى نشر فيه ڤيزاليوس كتابه هذا فى التـشريح نشـر البولـندى الفذ نيـقولاس كـوبرنيكوس نظريتـه (١٤٣٧-١٥٤٣م)، التى قلبت المفاهيم القديمة فى علم الفلك رأسا على عقب. لقد ظل العلماء حتى مجىء كوبرنيكوس يعتقدون بصدق نظرية الجـغرافى اليونانى القديم بطـليموس بأن الأرض هى مركـز الكون، وبأن الشمـس وسائر الأجـرام السمـاوية الأخرى تدور حول الأرض. وتكمـن عبقـرية كـوبرنيكوس أنه - دون معونة من أجهـزة تلسكوبية أو غيرها - توصل بحساباته الدقيقـة إلى أن الأرض هى مجرد كوكب من عدة كـواكب أخرى تدور جميـعا حول الشـمس، وأن الليل والنهار يتعـاقبان كنتيـجة لدوران الأرض حول محورها، وليس بسبب دوران الشمس حول الأرض كما كان يظن.



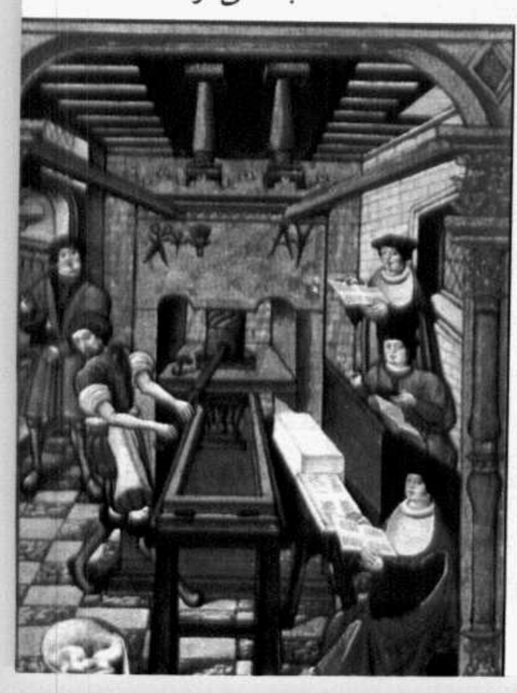
جاليليو:

ولقد تـأكدت مصـداقيـة نظرية كوبرنيكـوس بالدلائل القاطعـة الحسـابية والتجـريبية التى خرج بهـا العالم الإيطالى جاليليـو جاليلى فيمـا بعد (١٥٦٤-١٦٤٢م)، فى مجال الميكانيكا، وعن المجموعة الشـمسية، وقانون الحركة، وعن التركيب الذرى للمـادة. وهو الذى طور التلسكوب الذى ابتكره الهولندويون سنة ١٦٠٩م ومكنه من رؤية الجـبال التى تكـسو سطح القـمر، ولقـد زجت الدوائر الكنسـية بجـاليليو فى السـجن ولم تطلق سراحه إلا بعد أن وقع علـى وثيقة يتراجع فيها عن كل آرائه.



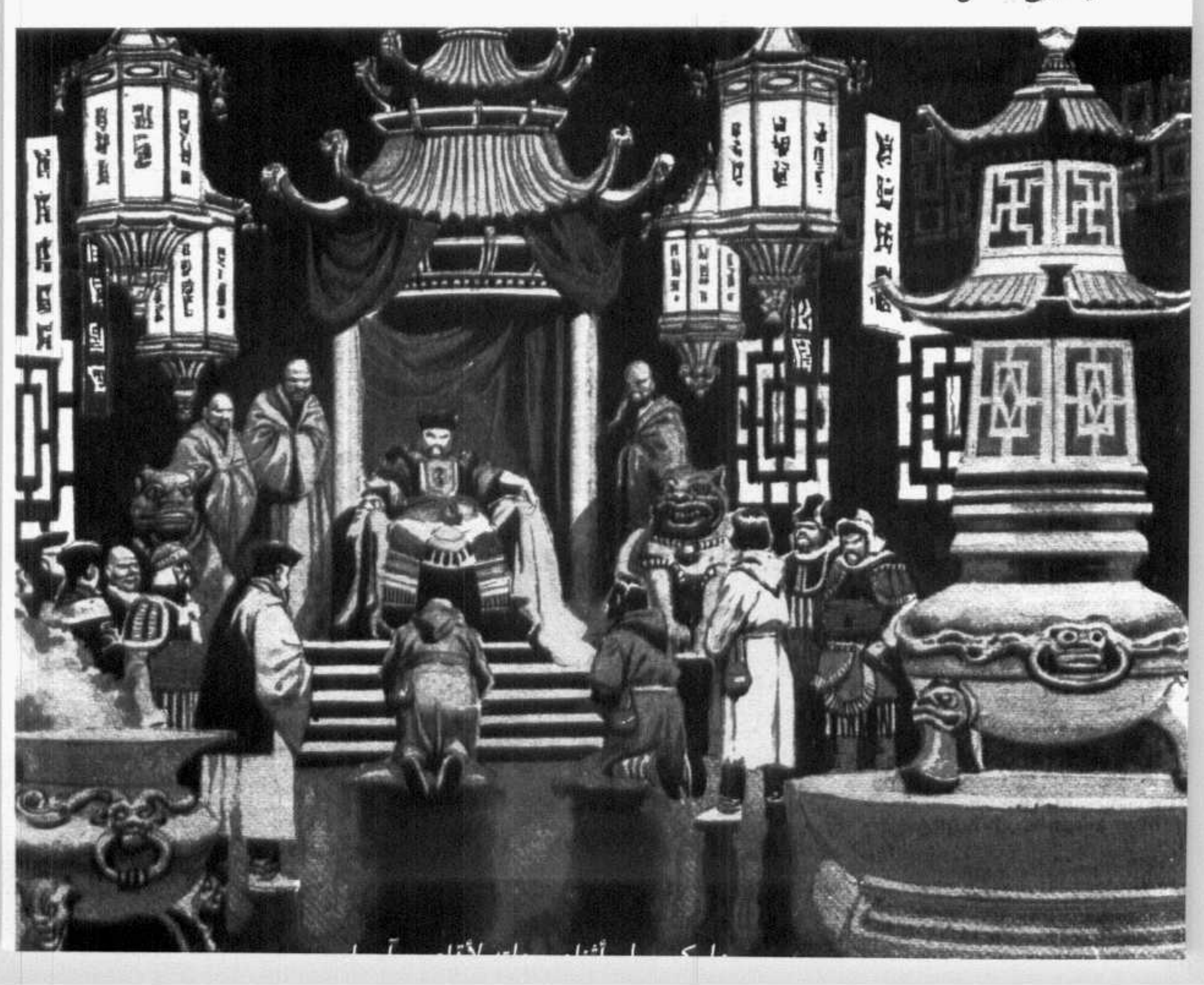
جاليليو جاليلى

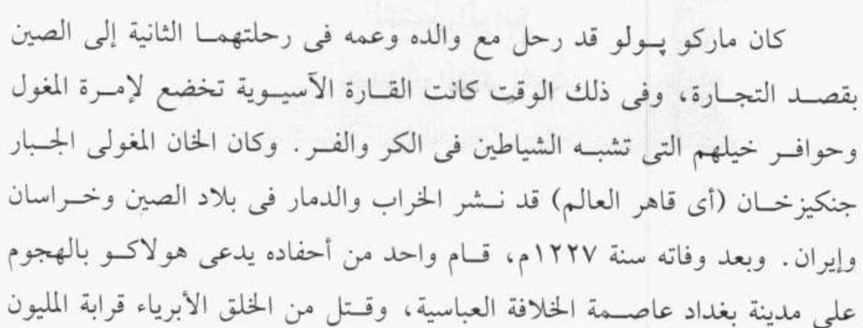
الطباعة فى فرنسا





كان الأوروبيون فى العصور الوسطى من خاصة وعامة لا يعرفون شيئا يذكر عن جغرافية وتاريخ بلدان الشرق الأقصى. ويكفى للتدليل على صدق ما نذهب إليه أن الرأس الكبرى فى الغرب اللاتينى البابا أوروبان الثانى عندما وقف فى مؤتمر كلير مونت بفرنسا سنة ١٠٩٥م يدعو الأوروبيين إلى حمل سلاحهم والزحف نحو الشرق لم يكن ليميز بين العرب والفرس والسلاجقة الترك. وظلت صورة الشرق البعيد باهتة غامضة فى الغرب الأوروبى إلى أن نشر الرحالة البندقى ماركوبولو (١٢٥٤-١٣٢٤م) أخبار رحلته إلى أقاصى شرق آسيا على الناس.





ماركو پولو:

كان ماركو پـولو قد رحل مع والده وعمه فى رحلتهمـا الثانية إلى الصين بقصـد التجـارة، وفى ذلك الوقت كانت القـارة الآسيـوية تخضع لإمـرة المغول وحوافـر خيلهم التى تشبـه الشياطين فى الكر والفـر. وكان الخان المغولى الجـبار جنكيزخـان (أى قاهر العالم) قد نـشر الخراب والدمار فى بلاد الصين وخـراسان وإيران. وبعد وفاته سنة ١٢٢٧م، قـام واحد من أحفاده يدعى هولاكـو بالهجوم على مدينة بغداد عاصـمة الخلافة العباسية، وقـتل من الخلق الأبرياء قرابة المليون من البشر، بل وأغرق نفائس المكتبات وكنوزها فى نهر دجلة كى يصنع من كتبها قنطرة يعبر عليها جنوده الزاحفـون، حتى إن لون ماء دجلة اخـتلط بين الأسود من مداد الحـبر والأحمـر من دماء الضحايا، وكان ذلك الحدث الأشأم سنة ١٢٥٨م.

قوبيلاى خان:

وفى سنة ١٢٥٩م صار قوبيلاى خانا أكبر للمغول، وبقى فى الحكم لمدة ثلاثين عاما. وفى عهـده دانت الصين لحكم المغول، ثم هجر الخـان عاصمة المغـول القديمة فى قراقـورم ليسكن فى العاصمة الجديدة التى شيدها فى الصين وهى مدينة كامبالوك أو بكين.

وفى بكين حط الفتى ماركو پـولو ووالده وعمه الرحال بحثا عن الحرائر والأحـجار الثمينة والبهارات للاتجار فيها بعد عودتهم إلى مدينتهم البندقية. ولقد أعجب الخان قوبيلاى بالفتى ماركو پولو وأبقاه فى خدمته فى البلاط لمدة سبعة عشر عاما. وبعد هذه الإقامة الطويلة، عاد ماركو پولو ليسجل مـذكراته وينشرها على أهل أوروبا. وهكذا سمع الأوروبيـون لأول مرة عن المدن الكبرى فى بلاد الصين، ومنها مدينة هانجشو التى قال ماركوبولو فى وصفها:

«هانجشو هى أكبر مـدن العالم حجما وأكثرها سكانا وأعظمهـا نُبلا .. وهى تموج بالتجار من كل فج .. وثراؤها وافرٌ لا يمكن وصف قدره الحقيقى.. والمدينة آمنة تماما ليل نهار، إذ يقف الحراس بالمرصـاد لمنع السرقـة وجرائم القتل أو الشـغب.. وشوارعهـا ممهدة بالحـجارة والقرمـيد المهندم.. ويتوافد على سوق المدينة ما يصل إلى خمسين ألفا من البشر دون اختناق أو مزاحمة.. وقنواتها مـغطاة بقنطرات عديدة مرتفعـة تمخر السفن من تحتـها وأشرعتـها فى كمال ارتفـاعها.. وللمدينة نظام بريد قوامه ألفان من الخيل، وعشرة آلاف محطة خدمة بريدية».

أما عن الخان قوبيلاى وأسلوب معيشته فنطالع الآتى فى وصف ماركوبولو:

«عندما يفد الخان الأعظم قوبيلاى للإقامة بعض الوقت فى واحدٍ من قصوره العديدة، تنصب له ولحاشيته ولأهل بيته الخيام. وخيمة رجال البلاط تتسع لعشرة آلاف من الفرسان للإقامة فيها، أما خيمة الخان فهى آية فى الفخامة والأبهة، وفى جزء منها يستقبل الزوار، وفى ركن داخلى يقع مخدعه الخاص. وهذه الخيمة الإمبراطورية مكسوة ومزدانة بالنقوش الجميلة الألوان والأشكال، وبهوها مكسو بأرقى جلود وفراء الحيوانات. وأرضها مفروشة بأفخر البسط المجلوبة من بلاد الروس والعجم». ولقد أدخل المغول معهم إلى الصين آلتهم الموسيقية التى تشبه «العود» ويطلقون عليها اسم «هو-تشن» (Hu-Ch'in)، وآلة المزمار.

لقد فتحت رحلة ماركو پولو أذهان الأوروبيين على ثراء بلدان الشرق الأقصى وخيراته، وليس من المبالغة فى شىء أن نقول أن النشاط التجارى بين أوروبا وبلاد الشرق الأقصى قد شهد انتعاشا ملحوظا بعد أن اطلع القوم على ما ورد فى رحلة ماركو پولو من أخبار وتفصيلات. وكانت قوافل التجارة من أوروبا إلى الشرق تتبع الطريق البرى الذى عرف باسم «طريق الحرير» عبر مدينة القسطنطينية وبغداد وصولا إلى الهند فالصين. وكانت التجارة مع الشرق فى القرن الخامس عشر فى أغلبها فى أيدى تجار البندقية، غير أن استيلاء السلطان العثمانى محمد الثانى «الفاتح» على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م قد أصاب تجار الغرب الأوروبى بالخوف من معاودة الترحال عن طريق البر.



الأسطول البرتغالى من لشبونة يغزو العالم



وهنا تحفز الغرب للبحث عن بدائل لهذا الطريق البرى عبر البحار للوصول إلى بلاد الحرير والتوابل. وقد جاءت الخطوة الأولى من جانب البرتغال التى كانت تبحث لنفسها عن موارد جديدة تعينها على حال الفقر الذى كانت تكابده، وخاصة أنها لم تستطع أن تنافس مدينتى البندقية وجنوة فى السيطرة على تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد سنحت الفرصة للبرتغال فى وقت كانت فيه إنجلترا وفرنسا مشتبكتين فى حرب شرسة دامت مائة من السنين، وكان الإسبان بدورهم فى حرب لا تهدأ مع مغاربة الشمال الإفريقى ومع أنفسهم داخل إسبانيا أيضا. وبذلك كان البرتغاليون أول من بدأ حركة الكشوف الجغرافية فيما وراء البحار.

ومن باب الإنصاف والحق لابد للمؤرخ الموضوعى من أن يؤكد على أن حركة الكشوف الجغرافية قد حملت بين أضلاعها نفس الأفكار الصليبية والدوافع العدوانية واللهفة على «العسل واللبن» فى أنهار الشرق. وتحت هذا القناع الزائف أخفى البرتغاليون والإسبان والهولنديون والإنجليز والفرنسيون والألمان والطليان من بعدهم الدوافع الحقيقية لهذه «الإمبريالية» المبكرة. وهكذا ضربت شعوب آمنة شرقا وغربا بالحديد والنار، ونهبت مقدراتهم وثرواتهم، كى تجد كل قوة أوروبية لنفسها «مكانا تحت الشمس» على حد تعبير العصر.

هنرى الملاح:

بدأت حملات البرتغال للكشوف الجغرافية على يد واحد من البيت المالك هو الأمير هنرى الملقب «بالملاح». وكان هنرى قد شارك فى حملة صليبية ضد الشمال الإفريقى، ووقتها راح يفكر فى الدوران حول قارة إفريقيا، أملا فى الوصول إلى الهند عن طريق البحر كبديلٍ للطريق البرى الذى صار تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية القوية. وقد أحاط الأمير هنرى (١٤١٥-١٤٦١م) نفسه بمجموعة من الجغرافيين وعلماء الفلك والخرائط ومشاهير البحارة ومصممى وبناة السفن.


الأمير هنرى الملاح

كما أن شقيقه دون بدرو (Don Pedro) أهداه نسخة من «رحلة» ماركو بولو، كى يسترشد بها فى مغامراته البحرية. وقد بنى الخبراء بناءً على أمر هنرى عددا من السفن

٤٧

المتطورة التى تبحـر لا بدفع المجاديف وإنما بشراعـات ثلاثة، ووصلت زنة بعض السفن مائتين من الأطنان. وبهـذا نجح هنرى فى الكشف عن جزر كنارى والجزر الأخرى المنتشرة قبالة الشواطئ الإفـريقية فى المحيط الأطلنطى وهى جزر ماديرا، والأزور، والرأس الأخضر (Cape Verde)، وقد اتخذها البرتغاليون- فيما بعد- نقط انطلاق لرحلاتهم الكشفية جنوبا وغربا.

وكانت بعض الخرافات لا تزال عالقة بأذهان الناس؛ منها على سبيل المثال أن من يبـحر جنوبا أبـعد من نقطة رأس باغـادور (Bajador) سوف يسـود لون جلده ثم يموت. إلا أن العلماء المحيطين بالأميـر هنرى أقنعوه بأن هذه الخرافة لا أساس لها من المصداقية؛ ومن ثمَّ أمر رجـاله بالإبحار جنوبا حتى وصلوا إلى خليج غينيا. وأينما حل البرتغاليون كانوا يرسمون خرائط للمواقع التى يرسـون فيها بمراكبهم، ثم ينقضون على موارد تلك البلاد وخاصـة الذهب فينهبونه. وأما الوزر الأكبـر الذى اقترفه البرتغاليـون ضد الأفارقة هو أنهم كانوا يختطفون أبناء وبنات تلك البلدان ويبيعونهم فى أسواق النخاسة.

دياز:

ولما أن مات الأمـير هنرى (١٤٦١م)، عهـد الملك البرتغالى يوحنا الثـانى إلى كبار التـجار البرتغـاليين لمتابعة رحـلات الكشف ووضع الخرائط. وقـد حدث أن واحدا من هؤلاء التـجار هو بارتولوميـو دياز، قد انجرف بمركـبه جنوبا أكثـر مما كان ينتوى لرحلته، فـوجد نفسه يدور حول القارة الإفـريقية فيـما يشبـه الدوامة، ثم ارتطمت سـفينتـه برأس القارة فأطلق على البـقعة اسـم «رأس العواصف»، وهى نفس البقـعة التى سـميت فـيمـا بعد «رأس الرجاء الـصالح» (Cape of Good Hope) من باب التـيـمن والـفـأل الحـسن، وقد عـزم بارتولومـيو على المـضى بحثـا عن الهند، ولكن بحـارته وقد أعـياهم الحـر والمرض تمردوا عليه، فاضطر إلى العودة إلى البرتغال (١٤٨٧م).


فاسكو دا جاما

فاسكو داجاما:

بعد ذلك بعشرة أعوام (١٤٩٧م) أبحر مغامر آخر هو فاسكو داجامـا على أربع سفن، مزودا بمؤونة تكفى الحملة لمدة ثلاث سنوات. ولقـد قطعت الرحلة للدوران حول إفريقيا شهورا خـمسة، واستغرقت الرحلة إلى ثغر

كاليكوت على الساحل الغـربى للهند عاما كاملا. وبعد هذا النجـاح، عاد جاما محمـلا بكنوز من بلدان الشرق، وإن كان قد فقـد ثلث رجاله فى الرحلة. وقد لقب جاما نفسه بلقب «أدميرال المحيط الهندى»، فى حين أن ملك البرتغال تلقب بلقب «سيد البحار والتجار وفاتح الحبشة وفارس والهند».

حقق البـرتغاليون ثروات طائلة مـن الخيرات التى جلبـوها من بلاد الشرق الأقصى، فـقاموا ببناء أسطول قـوى لحماية مصـالحهم التجـارية الجديدة. ولكى تبقى التـجارة حكرا فى أيديهم، عمل البـرتغاليون على إقـامة محطات وقـواعد بحرية فى مواقع مختلفة لتأمين مصالحهم فيما وراء البحار.

لقد جـاء كشف طريق رأس الرجـاء الصالح، وما ترتب عليـه من تحول التـجارة إلى هذا الطريق البحرى بـدلا من الطريق البرى عبر القسطنطـينية والبحر الأحمـر ضربة قاصمة لاقـتصاد الدولة العثمـانية وللسلاطين المماليك فى مصـر، ولحلفائهم أهل البندقية سادة التـجارة فى حوض البحـر الأبيض المتوسط؛ ولذا فإن هذه القـوى الثلاث التى أصيبـت بالضرر، حشدت أسـاطيلها للتصـدى لأسطول البرتغال فى ميـاه الهند، وكان الأسطول البرتغـالى تحت قيادة الأدميـرال ألميدا (Almeida) الذى اشتبك مع أسطول الحلفاء عند بلدة ديو السـاحلية على سواحل الهند، وانتهت المعركة البحرية بانتـصار البرتغاليين؛ نظرا لأن سفنهم كانت أكثر تـطورا وصمودا من سفن الحلفاء (١٥٠٩م).

وبهذا النصر للبرتغـال، صاروا أصحاب اليد العليا على البحار الشـرقية لمدة قرن كامل من الزمان لا ينازعهم فى هذه السيطرة أحد.

ألبوكيرك:

عين ملك البرتغال واحدًا من رجاله الأشداء يدعى ألبـوكيرك فى منصب «نائب الملك» فيما وراء البحار. وأقام هذا النائب مقرا له فى مدينة جوا شمالى ميناء كاليكوت الهندى، ثم هجم من قاعدته على مـدخل الخليج العربى واستولى علـى جزيرة هرمز التى تتحكم فى الملاحـة فى البحر العربى. وقد أرسل ألبوكيرك بسفنه لنقل سلع التجارة من الصين، حتى باتت تجارة البهارات حكرا على البرتغال.

ولقد هلل البرتغاليون فرحا بإمبـراطوريتهم العائمة فى الشرقين الأوسط والأقصى، حتى إن الشاعر البرتغـالى خامونيس (Camoens) قال: «لو أن فى الدنيا بـقاعا أخرى مجـهولة لقام أهل البرتغال باكتشافها».



عـادت الكشوفـات الجغـرافيـة على البرتـغال بمكاسب مـادية لم يكونوا يحلمون بها، وذلك على حســاب شعوب آسيا. كذلك حمل التجــار البرتغاليون معهم إلى جانب بضاعتــهم أفكارًا جديدة من الهند والصين، ساهمت فى إنعاش العقلية البرتغالية بقيم شرقية روحــانية وجمالية لم تكن معروفة عند أهل الغرب، إلى جانب تأثيرات معمارية وضحت فى بنايات كثيرة فى البرتغال.

على أن أحوال البــرتغال أخــذت تسوء فى العقــدين الأخيــرين من القرن السادس عشر؛ فلقد مات الملك سباستيان دون وريث سنة ١٥٨٠م، فانتهز فيليب الثانى ملك إسبانيا الطموح الفرصة وضم مملكة البرتغال إلى تاجه.

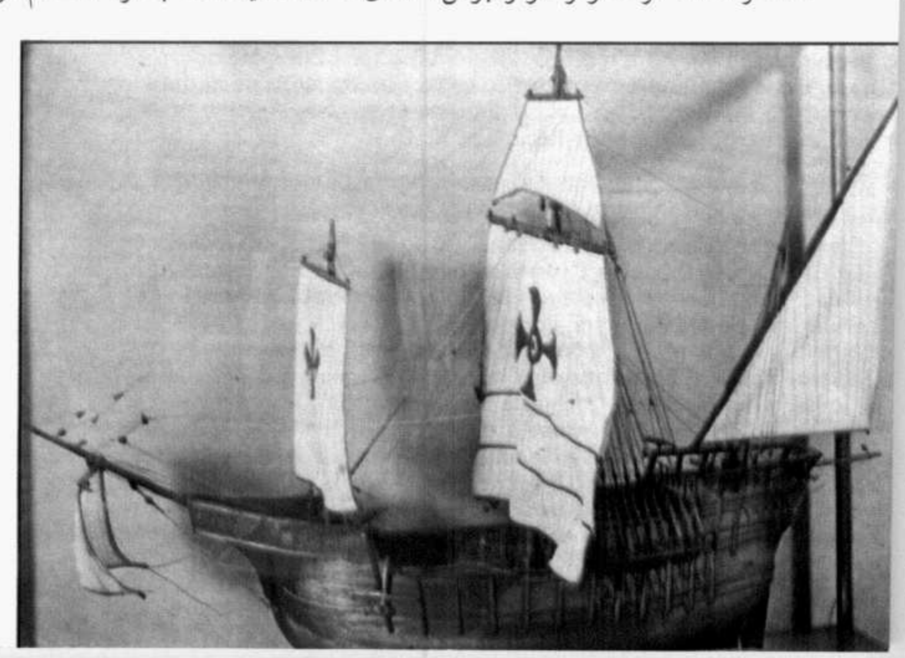


كانت فكرة كروية الأرض وإمكانية الوصول بحرا من جهة الغرب إلى بلاد الهند تراود خيال الكثيرين من الجغرافيين والفلكيين فى عصر النهضة، ومن بين هؤلاء كان العالم الإيطالى توسكانيللى. ويذكر أن المغامرين من أهل الشمال الأوروبى المعروفين باسم «الڤايكنج» كانوا يصارعون أمواج المحيط الأطلنطى متجهين غربا فى قواربهم الطويلة حتى وصل بعضهم إلى شواطئ مجهولة على الجانب الآخر من المحيط، دون أن يدركوا حقيقة ما وصلوا إليه، على أن ذكريات هذه المغامرات «الملحمية» قد طويت فى بحور النسيان.

وفى عصر النهضة تزامن التفكير فى عبور المحيط الأطلنطى مع تقدم فى علوم الجغرافيا والفلك وابتكار وتطوير آلتى البوصلة والإسطرلاب، نقلا عن العرب.

كولومبوس:

كان أهل مدينة جنوة الإيطالية سباقين فى الاستفادة من هذه المعلومات والاختراعات، وراحوا يعدون العدة لعبور جبل طارق لترقية نشاطهم التجارى. وقد برز من بين أبناء جنوة بحار مغامر اسمه كرستوفر كولومبوس، الذى كان شديد الثقة بفكرة العالم توسكانيللى عن كروية



نموذج للسفينة «سانتا ماريا»

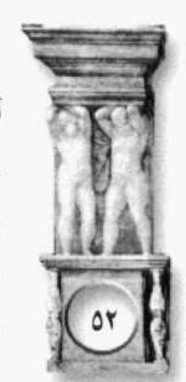


الأرض، وبإمكانية الوصول إلى بلاد الشرق الأقصى عبر المحيط الأطلنطى. وعرض كولومبوس خطته فى عبور الأطلنطى على ملك البرتغال، ولكن المشروع قوبل من البلاط البرتغالى بفتور شديد.

وبعدها قصد كولومبوس إلى بلاط ملكة وملك إسبانيا فى كل من قشتالة وأرغونة آملا فى تمويل حملته الكشفية. وقد رحبت الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة بمشروع كولومبوس، ومن بين ما أعلنه للملكة تعبيرا عن امتنانه أنه «سوف يحول شعوب آسيا إلى الكاثوليكية»؛ وهذا ما يؤكد الروح الصليبية لحملات الكشوف الجغرافية.

تكونت حملة كولومبوس من ثمانية وثمانين بحارا على ظهر ثلاث سفن تقود المسيرة معهم سفينة سانتا ماريا التى بلغت حمولتها مائتى طن.

المستكشفون البرتغاليون - نصب تذكارى - على رأسهم كولومبس



وأبحر الجـميع فى أغسطس لسنـة ١٤٩٢م من ميناء پالوس (Palos) على أمل أن يصل إلى مرمـاه على الجانب الآخر من العـالم فى بضعة أسـابيع. وبعد الإبحار من جزر كنارى أمـضت الرحلة شهرًا كامـلا دون بارقة توحى بالرسو أو الوصـول. وأصيب الجمـيع بالفـزع واليأس وخـاصة بعـد أن نفدت المؤن ومـياه الشرب، وكان البـحارة على وشك التمرد والفتك بكولومـبوس الذى قادهم إلى هذه المغـامرة «المجنونة والانتـحاريـة». وفجـأة وهم على هذه الحال من اليـأس ظهرت فى السماء بعض الطيور ترفـرف فوق الصوارى، فتجدد الأمل فى قلوب الجميع. وفى الثانى عشر من أكتوبر ١٤٩٢م لاحت من بعيد شواطئ بعض الجزر (هى جزر البحر الكاريبى)، وفى غـمرة من الحمـاس والفرح رسى الجـميع على بر الأمـان. وكان أول مـا قام به كولومبوس أن رفع علم مملكة قشتالة على تلك الجزر (جـزر البهاما). ثم تحرك كولومبوس ليصل مع رجاله إلـى أراضى ما عرف فـيمـا بعد باسم أمـريكا الوسطى، التى ضمـها أيضـا إلى التاج الإسبانى. وفى العام التالى لهـذا الكشف عاد كولومبوس إلى إسبانيا مـحملا بالذهب والحيوانات الغريبـة والطيور زاهيـة الألوان واثنين من أهل البلاد (الهنـود الحمر). ثم أصـدر التاج الإسـبانى مرسوما بتعيين كولومبوس نائبا ملكيا على هذه الأراضى المكتشفة الجديدة.

ولـم يدرك كولومبوس حـتى وفاته أنه قد اكتشف عالما جديدا، بل ظل يعـتقد أنه قد وصل إلى السواحل الـشرقيـة لقارة آسيـا والهند؛ ولذا فإنه أطلـق على سكان هذه المناطق اسم «الهنود الحمـر» وهو المسمى الذى لصق بهم مـنذ ذلك التاريخ. وانسـحب نفس الشىء على جزر البـحر الكاريبى التى أطلق عليها اسم «جزر الهند» الغربية.

وقد نشط كولومبـوس ورجاله فى البحث عن كنوز الذهب التى قيل أن البلاد مليـئة بجبال منها، ولما لم يعثر على القدر الكافى المنشود، قام بشحن سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) فى سفنه لبيعهم فى أسواق النخاسة. وبعد فترة من سوء الإدارة والفساد وقهر الهنود الحمر، استدعى كولومبوس إلى إسبانيا، حيث مات فى ظروف غامضة لا نعرف أسرارها.

أمريجو فسيوتشى:

وفى سنة ١٤٩٩م رافق مغامر فلورنسى اسمه أمريجو ڤسيوتشى إحدى الرحلات الإسبانية اللاحقة إلى الأراضى التى اكتشـفها كولومبوس، وأعلن للعالم أن ما وصل إليـه كولومبوس عالم جديد يقع بين قـارة أوروبا وبلاد البهار فى الشرق، وعليـه فإن هذا العالم الجديد قـد سمى باسم أمريجو (أو أمريكو)، وهكذا ولدت أمريكا.



ماجلان:

بعد هذا بـبضع سنين ظهر الملاح الـبرتغالى المشـهور مـاجلان (١٤٨٠-١٥٢١م)، واسمـه الأصلى هو فرناو دى مـاغلاس (Fernao de Maghalhas) الذى عندمـا التحـق بخدمـة البـلاط الإسبـانى صار يـعرف باسم فـرناندو دى ماجللانس (١٥١٣م). وقد اضطلع ماجلان بعدة رحلات بحرية فى بداية الأمر، كما شـارك مع بنى جلدته البرتغاليين فى مـعركة ديو البحـرية فى المحيط الهندى ضد أسطول البـندقية والسـلاطين المماليك سنة ١٥٠٩م. كـما شـارك أيضا فى الاستيلاء على جـزيرة ملقا سنة ١٥١١م، وفى حملات البرتغال ضد المغـرب سنة ١٥١٣م، وفيها أصيب بجرح عميق. ولما أن رفض ملك البرتغال رفع قيمة معاشه السنوى، دخل فى خدمة البلاط الإسبانى. فى ذلك الوقت كان الخلاف بين البرتغال وإسبانيا على أشده، رغم أن البابوية كانت قد تدخلت فى هذا النزاع وأقنعت الطرفين على توقيع معـاهدة صلح سنة ١٤٩٤م قُسِّمَ العالم الجديد بمقتـضاها بين الطرفين بخط وهمى وسط المحـيط الأطلنطى بحيث يصـبح لإسبانيـا السيطرة على الأراضى الواقعة غربى هذا الخط، ويصبح للبرتغال الهيمنة على الأراضى الواقعة شرقيه.

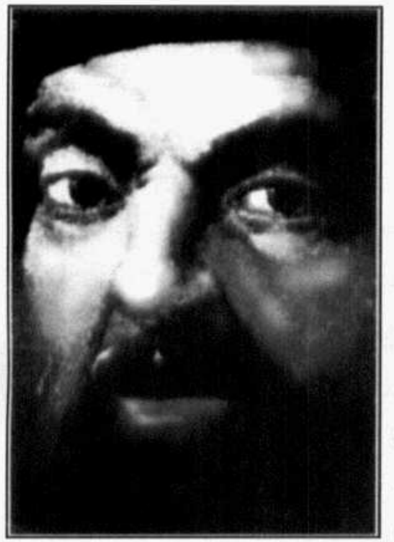
وفى سنة ١٥١٣م وكل شارل الخامس ملك الإسـبان إلى ماجلان مهـمة ضم أراضٍ جديدة فى العالم الجديد للتـاج الإسبانى، وزوده بخمس سفن لكـل سفينة قبطانها وبحـارتها الذين بلغوا ٢٨٠ بحارًا. وهذه السفن كـانت تحمل أسماء: ڤيتوريا، وترينيداد، وأنتونيو، وكـونسبسيونى، وسانت إياجو. وبدأت رحلة ماجلان فى ٢٠ سبتمبر ١٥١٩م من جزر كنارى حتى وصلت خليج ريودى جانيرو، فمـصب نهر ريودى لابلاتا، وأمضى الجميع فصل الشـتاء فى خليج سان يوليان. ثم حدث أن تمرد بعض البحارة على ماجلان وأعلنوا العصيان، ولكنه وأعوانه المخلصين نجحوا فى قمع هذا التمرد بطريقة عنيفة، وقد تحطمت السفينة سانت إياجو فى خضم هذا التمرد.

وفى الحادى والعشـرين من أكتوبر ١٥٢٠م عبر مـاجلان ورجاله مضيـقًا فى أقصى جنوب قارة أمريكا الجنوبية مستغرقًا فى هذا العبور شهرا كاملا. وقد عرف المضيق فيما بعد باسم «مضيق ماجلان»، وفيه وقع عصيان آخر، فقرر قبطان السفينة أنتونيو العودة بسفينته إلى إسبانيا.

وفى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر ١٥٢٠م على ظهر السفن الثلاث الباقية ولج ماجلان إلى المجـهول اللانهـائى الاتساع. ولما أن لاحظ هدوء مـياه هـذا المحيط الكبـير أطلق عليـه لفظ «باسيفيك» (Pacifico) الذى يعنى الهدوء، ومنه جاءت التسمية: المحيط «الهادى» مقارنة بخشونة أمواج المحيط الأطلنطى. وفى المحيط الهادى نفدت مـؤن البحارة وطال الإبحار فأصيب العديدون

من الرجال بمرض الإسـقربوط. ودام الحال على هذه الدرجة من السوء حتى إن البحارة أخـذوا يأكلون الديـدان والفـئـران ونشـارة الخشب فـى موكب مبـحر يائس لمـدة ثمان وتسعين يومًا.

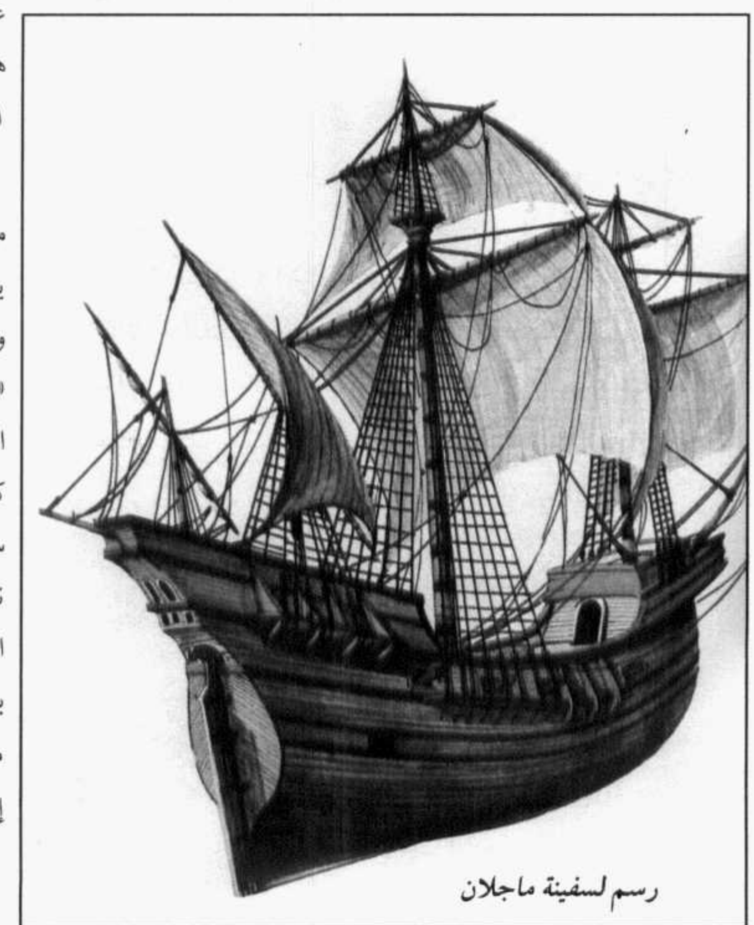
وفى السـادس من مـارس ١٥٢١م رست الرحلة فى جـزيرة جـوام (Guam)، حيث أكل البحارة وشربوا ثم حملوا معهم المؤن الكافية، ثم وصل مـاجلان بعـد ذلك إلى جزيرة لادرون وبعض الجـزر الأخرى الـتى أطلق عليهـا اسم ملك إسبـانيا فـيليب الأول فصـارت تعرف باسم «الفلبين». وفى واحـدة من هذه الجزر وهى جزيرة ماكتان وقع اشتـباك بين الأهالى والبحارة الوافدين



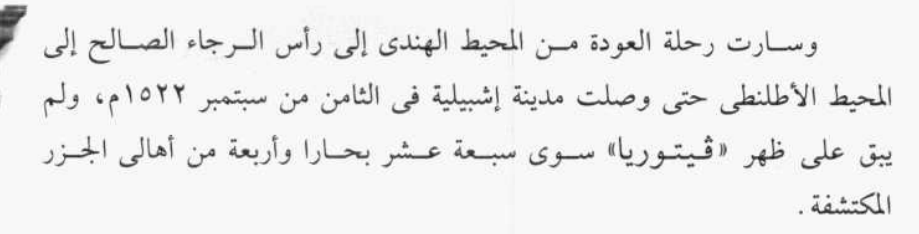
ماجلان

عليهم، وقد قـتل ماجلان فى هذا الاشـتـبـاك (٢٧ أبريل ١٥٢١م).

لم يـبق من رجـال ماجـلان إلا ١٣٠ رجلا، ولم يبق من الـسـفن إلا سـفـينة واحدة هى ڤيـتوريا (معناها «النصـر»). وعندهـا قـرر القبطـان خوان سبـاستـيان دل كـانو - الذى كـان قد هجـر سفـينته «كونسـبسـيونى» التى نخرتـها الديدان - أن يسـتقل السفينة المتـبقية ڤيـتوريا ومن بقى من الرجـال وثلاثة عشـر من أهالى الفلـبين للعـودة إلى إسبانيا.



رسم لسفينة ماجلان



وسـارت رحلة العودة مـن المحيط الهندى إلى رأس الـرجاء الصـالح إلى المحيط الأطلنطى حتى وصلت مدينة إشبيلية فى الثامن من سبتمبر ١٥٢٢م، ولم يبق على ظهر «ڤيتـوريا» سـوى سبـعة عـشر بحـارا وأربعة من أهالى الجـزر المكتشفة.

وهكذا أثبتت رحلة مـاجلان أن الأرض كروية بالفعل، وأن ما عـثر عليه كولومبوس هو عالم جديد لا صلة له بالشرق الأقصى.

فى خلال ذلك قامت رحلات بحرية أخرى للكشف عن الشمال الأمريكى على يد الإخـوة كابوت (Cabot) وهم من مـغـامرى أهل جـنوة، الذين بدأوا الرحلة من مـيناء برستـول الإنجليزى ووصلوا إلى جزيـرة نيوفوندلاند، لتـبدأ بعد ذلك قـصة الصراع بين الإسـبان والإنجليز والفرنسيين فى التكالب على أراضى أمريكا الشمالية.

الهنود الحمر:

أما الإسبان فقد توغلوا فى قلب أمريكا الجنوبية والوسطى، حيث اكتشفوا حضارات الهنود الحمر فى المكسيك وبيرو. والهنود الحمر قد وفدوا فى الأصل من آسيا من مناطق منغوليا وسيبيريا عبر مضيق بهرنج وحطوا رحالهم فى أمريكا، وذلك فى أعقاب العصر الجليدى منذ ألوف السنين. كما أن جنسـا آخر كان مستقـرا فى أقصى شمال القارة الجديدة هم الإسكيـمو الذين درجوا على العيش فى تلك المناطق الجليدية.

وكان الهنود الحـمر يعيشـون حياة البداوة، ويمـارسون الصيد والرعى فى الجـزء الغربى من القارة، فى حين أن قـبائل هندية أخـرى فى الجزء الشـرقى كانت مسـتقرة فـى القرى، ومن هذه القبائل جماعة «إيروكوا» (Iroquois) وقبيلة «الجونكن» (Algonkin). أما فى المنطقة التى يطلق عليها اسم كاليفورنيا اليوم، فقد كانت تسكنها قبيلة بوبلو (Pueblo) الذين كانوا مهرة فى صناعة الفخار وإقـامة المبانى الحجـرية ونسج الأقمشة. ولكن أرقى هذه القـبائل حضارة كانت جـماعات المكسيك التى عـرفت باسم «ناهوا» (Nahua) وكانت تضـم عـدة قبـائل مثل «شبـشاس» (Chip-chas)، و«مايا» (Maya)، وكـانت لهم معـابد وتماثيل وقـصور ونقـوش للآلهة، وإن كـانوا لم يتعرفوا بعد على صناعة المعادن. كذلك يذكر عن هذه القبائل أنها كانت تعرف المقاييس والساعات الشمسية، وكانت لهم دراية بالفلك.

جماعة الأزتك:

وفى سنة ١٠٠٠ ق م كانت قد حلت فى المكسيك جماعة مهاجرة من الشمال هى قبيلة «الأزتك» (Aztec)، وهى التى غلبت على قبائل المايا هناك وفرضت عليهم أسلوب حضارتها ومعيشتها.

وكانت الأزتك على علم بصناعة الورق وبالكتابة، وكانوا يقدمون لآلهتهم أضحيات بشرية كقرابين. وفى سنة ١٥١٩م وصل القائد الأسبانى هرناندو كورتيز إلى مرسى ڤيرا كروز، وأمر رجاله بإحراق مراكبهم حتى لا يفكروا فى العودة إلى إسبانيا، ثم هجم على بلاد المكسيك. ومع أن ملك الأزتك قد رحب بالغازى الأسبانى بأن قدم على شرفه أضحية من البشر، إلا أن كورتيز أطلق رجاله فى البلاد ينهبون ويذبحون الأهالى، بعد أن أوقع بمضيفه الملك «مونتيزوما» (Montezuma) أسير حرب. وقد استمر النهب والسلب والتقتيل لمدة ثلاث سنوات حتى دانت له كل القبائل، وبعدها أرسل كورتنيز إلى ملك إسبانيا يزف إليه أنه «قد ضمَّ إلى تاجه من الأراضى أكثر مما تركه له أجداده»، ولقد نهب الإسبان مناجم المكسيك من فضة وذهب وشحنوها إلى إسبانيا.

قبيلة الإنكا:

وفى المكسيك علم الإسبان أن قبيلة الإنكا فى بيرو تملك تلالا من الذهب، وقيل لهم أن شوارع عاصمتهم «كوزكو» (Cuzco) مرصوفة بالذهب. وكانت قبيلة الإنكا على درجة مميزة من الحضارة، فكانوا يزرعون الذرة والقطن ويصنعون أجود أنواع الفخار. وكانوا يعبدون قرص الشمس، ويؤلهون ملوكهم ويلقبونهم بلقب «إنكا» ومعناها «ابن الإله». وإلى جانب مناجمهم



نحت فى الصخر - حضارة «مايا»

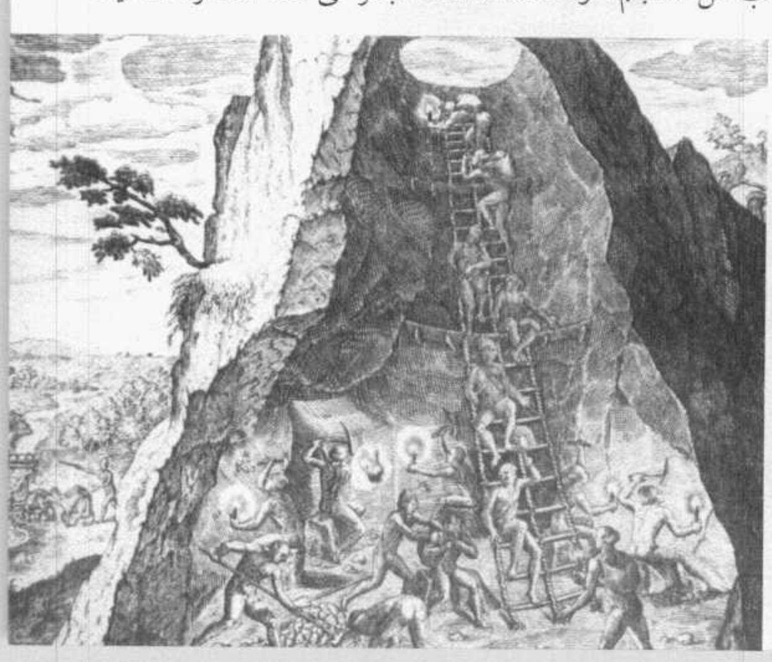
من الفـضة والذهب كـانت لديهم قطعان كـثيـرة من حيـوان اللاما الذى كـانوا يستخدمونه فى حمل الأثقال.

پيـزارو:

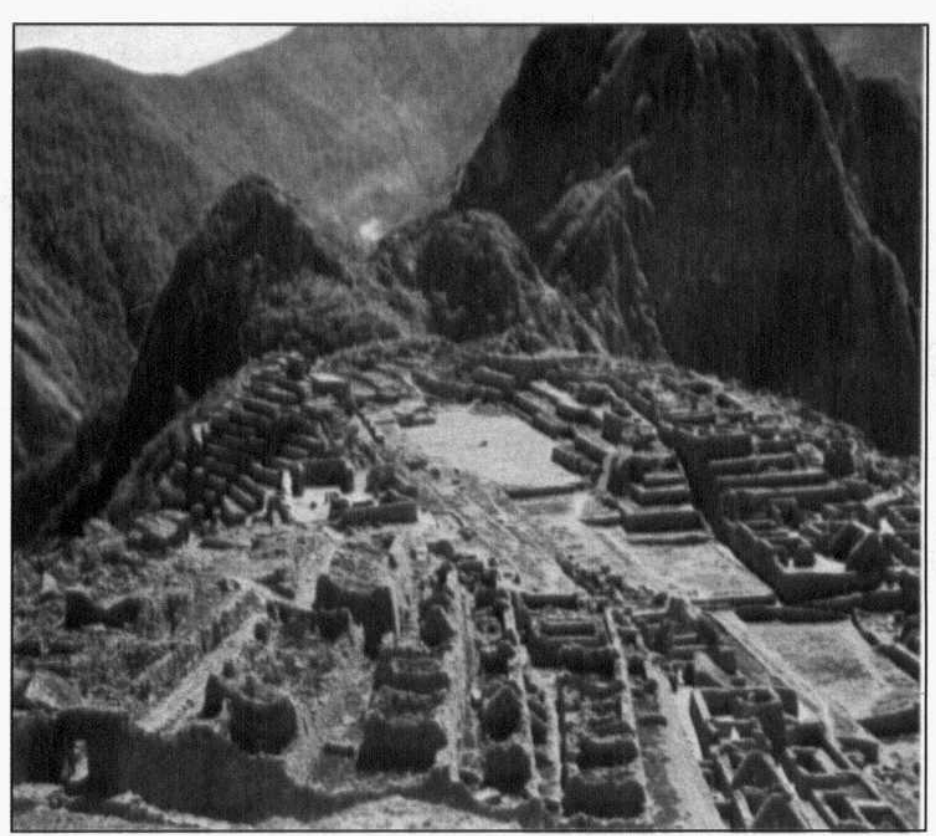
وعندمـا هجم الإسبـان على بيرو بقـيادة «پيـزارو» (Pizarro) وفرسـانه الأشداء على ظهور خـيولهم، أصيب الأهلون بالفزع من منظر الخـيل والفرسان المقنعين خلف خوذاتهم ودروعهم، فخيـل إليهم أنهم أمام «فرسان من الجن لهم أربعة أرجل»! وكان پيزارو سـفاحا شرسا عنيدا لا يعرف مـعنى للرحمة، فأطلق يد رجاله سبع سنين لإخضاع پيرو، إلى أن لقى حتفه فى شغب نشب بين الغزاة الإسبان أنفسهم، أغلب الظن على تقسيم الغنائم!

والحق أن تاريخ كورتيز وخلفه پيزارو يجعلنا نؤكـد عكس ما قد تواتر فى سجلات التاريخ الأوروبى بأن «المدنية الإسبانيـة قد غلبت على الهمجية» ونقول بأن «الهمـجية الأوروبية قد تجنت على شعوب آمنة مـتحضرة»، والأمثلـة للتدليل على حكمنا كثيـرة، فمثلما غدر من قـبل كورتيز بملك الأزتك، قام پيزارو بدعوة ملك الإنكا واسمه آتاهوالپا (Atahualpa) إلى اجتماع معه، ثم قبض عليه واشـترط كى يطلق سراحه أن يفـدى نفسه بحجرة كـاملة من الذهب، وقد وفى الملك وعده من الذهب، ورغم ذلك فقد حكم عليه پيزارو بالإعدام!

لقـد كان تاريخ الإسـبان فى أمريـكا الجنوبية سلسلة من حلقـات الغدر والكـذب والخداع وسفك الدماء البريئة. وتحول أصحاب الأرض من الهنود الحمر إلى عبيد يعملون سخرة تحت وطأة السياط فى استخراج الفضة والذهب من المناجم، ولقد هلك آلاف البشر فى هذه السخرة الآدمية، إلى حـد أن قـرى بأكـملـهـا أقدمت على الانتحـار الجماعى هروبا من جـبـروت الإسـبـان وسادتهم من عـتاة الجنرالات، وبعد ذلك جلب الإسـبان آلافا من العـبيـد من قـارة إفـريقيـا ليـشـاركـوا الهنود الحـمـر فى التعاسة والمذلة.



رسم للعمل فى المناجم



أطلال مدينة الإنكا



هرم من حضارة الأزتيك

وحـدث ولا حرج عن الأمـراض الخبـيـثة والسـرية التى نقلهـا الأسبـان والبرتغاليـون معهم من أوروبا إلى شعوب بكـر لم تكن تعرف هذه الأمراض من قبل. كـذلك فرض الإسبـان على شعـوب أمريكا الجنوبية العـقيدة الكـاثوليكية بالتهديد والوعيد!

أما المستعمرات الإنجليزية فى العالم الجديد فقد قامت على الوجه التالى:

بدأت هجرة الإنجليز للاستيطان فى العالم الجديد فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشـر، وكان أول رواد إقامة المستعـمرات فى أمريكا على حسـاب أهلها من الهنود الحمر إنجليـزى يدعى السير والتر رالى (Raligh) الذى وضـع النواة المبـكرة لمستـعمرة ڤرجينيا (Virginia) التى جاء اسمها تخليدا لملكة إنجلترا العذراء (Virgin Queen) - إليــــزابيـث الأولى (١٥٣٣-١٦٠٣م).



تمثال ذهبى من حضارة الإنكا

وفى أبريل سنة ١٦٠٧م أبحـر عدد من المهاجـرين الإنجليز على نفـقة «شـركة لندن التجـارية» وذلك بمقتـضى ميـثاق من الملك جـيـمـس الأول، واسـتـقـر هؤلاء المهـاجرون فى رقـعـة أطلقـوا عليهـا اسم جـيمس تاون تكريمـا لاسم الملك جيـمس الأول. وفى نفس الآونة كان نفر من فقراء الإنجليز الكاثوليك قد هربوا من إنجلترا إلى هولندا خوفا من اضطهاد الكنيسة الإنجليزية لهم، ولكنهم لم يجدوا غايتهم فى هولندا، فـقرروا الهـجرة والاسـتيطان فى أمـريكا. ونظرا لكثـرة تجـوال وترحـال أفـراد هذه الجمـاعة من بلد لآخر، فقـد أطلق عليهم المعاصرون لقب «الآباء الحجاج» (Pilgrim Fathers). وقد عاد هؤلاء «الحـجاج» إلى



موطنهم فى إنجلترا، حيث انضم إليهم عدد آخر من فقراء المزارعين، ثم عقدوا اتفاقا مع شركة إنجليزية تجارية لنقلهم على سفنها دون نفقات مقابل أن يعمل هؤلاء المنقولون فى العالم الجديد لحساب هذه الشركة لمدة سبع سنوات كاملة تسديدا لما عليهم من نفقات وديون. وكان عدد هؤلاء «الحجاج» ١٠٢ من الأشخاص، وقد حطوا الرحال فى نوفمبر ١٦٢٠م، حيث أسسوا مستوطنة لهم باسم پليموث (Plymouth).

وعلى مقربة من پليموث كان عدد آخر من الإنجليز المعروفين باسم «البيوريتان» (Puritans) أى الغلاة فى أمور الدين إلى حد التزمُّت، قد أقاموا لأنفسهم مستعمرة فى العالم الجديد فى ماساشوستس (Massachusets). وهؤلاء «البيوريتان» كانوا من أبناء الطبقة الوسطى تحت قيادة جون ونثروب (Winthrop)، الذى عمل على ضم مستوطنة بليموث إلى مستعمرة ماساشوستس فى ولاية واحدة، وإن كان هذا لم يتحقق إلا سنة ١٦٩١م.

هذا، وقد ظهر من بين أبناء ماساشوستس الباكرين قس ثائر اسمه روجر وليامز (Wil-liams) الذى هاجم سياسة البيوريتان المتعسفة ضد الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين؛ ولذا فإن زعماء البيوريتان قرروا ترحيله إلى إنجلترا، ولكنه هرب من أيديهم سنة ١٦٣٦م بمساعدة الهنود الحمر وخمسة من رفاقه نحو الجنوب، وأقام هذا الثائر مستعمرة له ولرفاقه باسم رود أيلاند (Rhode Island).

وقد شهد عام ١٦٣٤م قيام ثلاث مستعمرات جديدة:

واحدة عند مصب نهر بوتوماك (Potomac) هى مستعمرة مارى لاند (Maryland)؛ وأخرى عند نهر كنتيكيت وأطلق عليها مؤسسها توماس هوكر (Hooker) اسم النهر فصارت ولاية كنتيكيت (Conneticut)؛ ثم قام بعض المغامرين من ماساشوستس بإرساء قواعد مستعمرة ثالثة باسم نيوهامشاير (New Hampshire).

وفى سنة ١٦٧٠م أسس بعض النبلاء الإنجليز مستعمرة جديدة أطلقوا عليها اسم كارولينا (Carolina) تكريمًا لاسم الملك الإنجليزى شارلس الثانى (Carolus II)، وفيما بعد انقسمت هذه الولاية إلى قسمين: كارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية.

وفى سنة ١٧٣٣م قام مغامر إنجليزى اسمه جيمس أوجلثورب (Ogelthorpe) بتأسيس مستعمرة أخرى أطلق عليها اسم جورجيا (Georgia) تكريمًا لاسم الملك جورج الثانى.



هذا، وكان الهولنديون من جانبهم قد أقاموا هم أيضًا مستعمرة لهم وأطلقوا عليها اسم نيو أمستردام (أمستردام الجديدة) (New Amesterdam) سنة ١٦٢٣م وذلك على جزيرة مانهاتن التى كانوا قد اشتروها من الهنود الحمر بما يقدر بأربعة وعشرين دولارا، ولكن المستعمرين الإنجليز لم يرتاحوا لوجود الهولنديين بجوارهم فى مستوطناتهم فى العالم الجديد، فأغار الإنجليز بسفنهم على أمستردام الجديدة سنة ١٦٦٤م لاحتلالها بالقوة، ومع أن زعيم الهولنديين آنذاك واسمه بيتر ستاى ڤيسانت (Stuy vesant) أعد العدة لمواجهة الإنجليز، إلا أن أهل المستوطنة خذلوا سيدهم وسلموا المدينة للإنجليز دون قتال. وقد منح الملك الإنجليزى هذه المستعمرة لأخيه دوق يورك (York)، ومن هنا جاءت تسمية نيويورك (New York).

وقد منح دوق يورك مساحات من الأرض شرقى وجنوبى نهر ديلاوير (Delaware)، وبذلك ولدت مستعمرتان جديدتان هما: ديلاوير، ونيوجيرسى (New Jersey).

وفى سنة ١٦٨٢م هاجرت جماعة إنجليزية أخرى من أبناء طائفة دينية تعرف باسم «كويكرز» (Quakers) وهم طائفة منشقة عن الكنيسة الإنجليزية ومتمردة أيضًا على التاج الإنجليزى، ويؤمن أفرادها بأن المحك الأوحد للإيمان هو «الضمير» وليس الطقوس والكهانة، كما أنهم يعارضون الحروب بشدة، وهم فى صلواتهم يجلسون فى صمت وتأمل وعندما تفيض بهم الروح تهتز أجسادهم (to quake) ومن هنا جاءت تسميتهم وتعنى «المصلون المهتزون»! وكان زعيم هذه الجماعة ويدعى وليام پن (Penn) قد أمضى فى سجون إنجلترا سبع سنوات بسبب آرائه الدينية والسياسية، ولما أخلى سبيله هاجر هو ونفر من أتباعه إلى أمريكا، حيث أقاموا مستعمرة أطلقوا عليها اسم زعيمهم «پن»، ولما كانت المنطقة مليئة بالغابات فقد أسموا مستعمرتهم «پنسلفانيا» (Pennsylvania) ومعناها «غابات پن» (Penn Woodland).

وبهذا اكتملت صورة الولايات أو المستعمرات الثلاث عشرة التى أقامها الإنجليز وهى حسب الترتيب الجغرافى:

مستعمرات الجزء الشمالى: ماساشوستس؛ نيوهامبشاير؛ كينيتكيت؛ رود أيلاند.

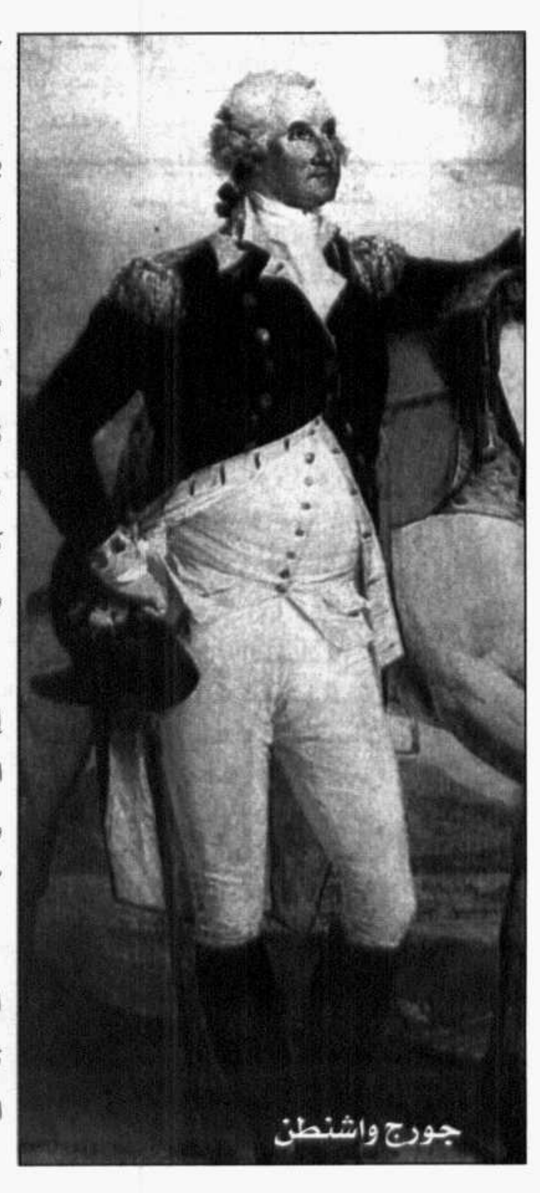
مستعمرات الجزء الجنوبى: مارى لاند؛ فرجينيا؛ نورث كارولينا؛ سوث كارولينا؛ جورجيا.

مستعمرات الوسط الأمريكى: نيويورك؛ نيوجرسى؛ ديلاوير؛ پنسلفانيا.

(راجع الخريطة).



هذا، وقد أثقلت حكومة لندن كواهل هؤلاء المهاجرين بالضرائب، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى وقوف الولايات الثلاث عشرة فى حلف واحد ضد التاج الإنجليزى وحكومته، وفى سبتمبر ١٧٧٤م عقد مندوبو هذه الولايات مجتمعة مجلسا عرف باسم «الكونجرس» (Congress) فى مدينة فيلادلفيا وأعلنوا فيه استقلالهم عن التاج البريطانى وإقامة دولتهم المستقلة باسم الولايات المتحدة الأمريكية. وفى سنة ١٧٧٦م تمَّ إعلان وثيقة الاستقلال التى كان قد صاغها الزعيم توماس جيفرسون والتى صارت الأساس للدستور الأمريكى فيما بعد.

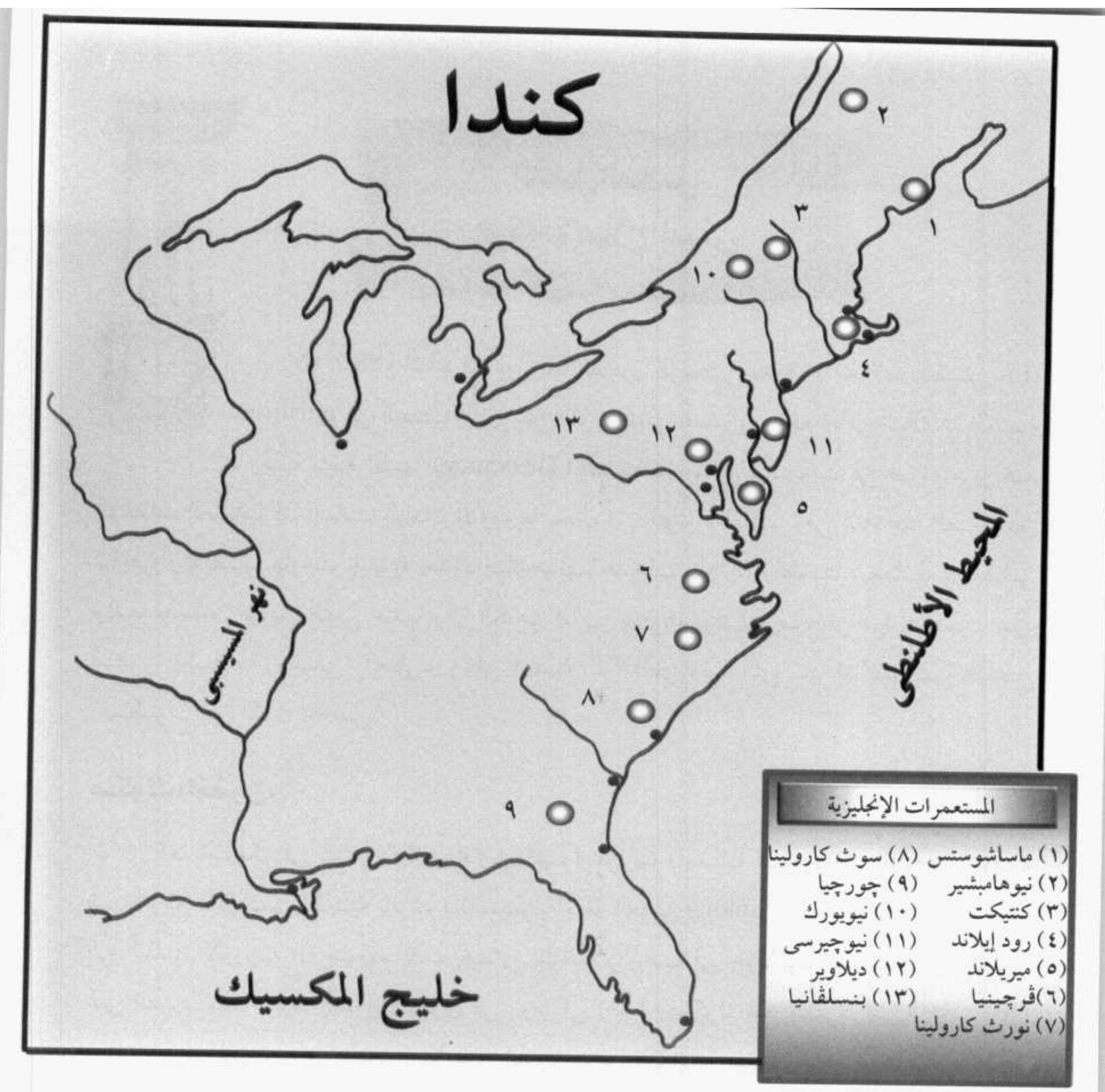

جورج واشنطن

جورج واشنطن:

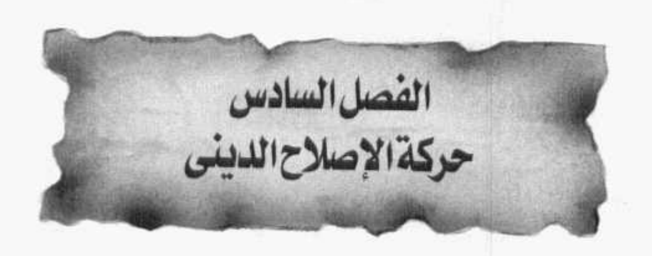
وكان طبيعيا أن يحتدم الصراع العسكرى بين القوات البريطانية المرابطة وبين هؤلاء الثوار على التاج الإنجليزى، وقد تولى قيادة الحرب الأمريكية ضد الإنجليز الزعيم جورج واشنطن، ولقد مُنى الإنجليز بهزيمة أولى فى معركة ساراتوجه Saratoga سنة ١٧٧٧م، ثم بهزيمة نكراء ثانية فى يورك تاون (York Town) فى ولاية ڤرجينيا، واضطر القائد الإنجليزى كورنوالاس (Cornwallis) إلى الاستسلام هو ورجاله للثوار!

وأخيرا فى سنة ١٧٨٢م اضطرت بريطانيا إلى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وتم التوقيع على هذا الاعتراف والصلح فى مدينة باريس فى سبتمبر لسنة ١٧٨٣م.

أما الولايات التى انضمت أو ضُمت إلى الولايات المتحدة الثلاث عشرة فيما تلا من تواريخ فهى كالآتى: (راجع الخريطة وقائمة الولايات التى ضمت تباعا).



١ - فرمونت سنة ١٧٩١م.
٢ - كنتاكى سنة ١٧٩٢م.
٣ - تنسى سنة ١٧٩٦م.
٤ - أوهايو سنة ١٨٠٣م.
٥ - لويزيانا سنة ١٨١٢م.
٦ - انديانا سنة ١٨١٦م.
٧ - مسيسبى سنة ١٨١٧م.
٨ - إلينوى سنة ١٨١٨م.
٩ - ألاباما سنة ١٨١٩م.
١٠ - مين سنة ١٨٢٠م.
١١ - ميسورى سنة ١٨٢١م.
١٢ - أركانساس سنة ١٨٣٦م.
١٣ - مشيجان سنة ١٨٣٧م.
١٤ - فلوريدا سنة ١٨٤٥م.
١٥ - ايوا سنة ١٨٤٦م.
١٦ - تكساس سنة ١٨٤٨م.
١٧ - وسكونسن سنة ١٨٤٨م.
١٨ - كالفورنيا سنة ١٨٥٠م.
١٩ - منيسوتا سنة ١٨٥٨م.
٢٠ - أوريجون سنة ١٨٥٩م.
٢١ - كنساس سنة ١٨٦١م.
٢٢ - وست ڤرچينيا سنة ١٨٦٣م.
٢٣ - نيڤادا سنة ١٨٦٤م.
٢٤ - نبراسكا سنة ١٨٦٧م.
٢٥ - كلورادو سنة ١٨٧٦م.
٢٦ - نورث داكوتا سنة ١٨٨٩م.
٢٧ - سوث داكوتا سنة ١٨٨٩م.
٢٨ - واشنطن (أولمبيا) سنة ١٨٨٩م.
٢٩ - مونتانا سنة ١٨٨٩م.
٣٠ - ويومنج سنة ١٨٩٠م.
٣١ - إيراهو سنة ١٨٩٠م.
٣٢ - يوتا سنة ١٨٩٦م.
٣٣ - أوكلاهوما سنة ١٩٠٧م.
٣٤ - أريزونا سنة ١٩١٢م.
٣٥ - نيومكسيكو سنة ١٩١٢م.
٣٦ - ألاسكا سنة ١٩٥٩م.
٣٧ - هاواى (جزيرة) سنة ١٩٥٩م.



بلغ الظلام أشده فى أوروبا العصور الوسطى عند قيام محاكم التفتيش (In-quisition) فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. وواقع الأمر آنذاك أن الكنيسة الرومانية بثيوقراطيتها (Theocracy) المتشددة، وبدخول البابوات فى صراع مرير ضد السلطات العلمانية قد أصابت البلدان الأوروبية بحال من التوتر والقلق. وفى أثناء هذا الصراع بين الكاهن والقيصر تجاوزت البابوية حدود صلاحياتها فدخلت المعارك ولطخت سمعتها بالدسائس ويدها بالدماء. وذهل الناس عندما رأوا الكاهن الأكبر يدق طبول الحرب، فراحوا يترحمون على أسطورة «السلام الرومانى» العالمى، وعلى «مدينة الله» الطوباوية التى كان قد بشر بها القديس أغسطينوس فى القرن الخامس.

صكوك الغفران:

كما شاعت فى تلك الأوقات أقاويل كثيرة عن سوء مسلك كبار رجال الدين، وخاصة شراء وبيع المناصب الدينية بالرشوة (السيمونية بلغة العصر Simony. وعرف عن مندوبى البابا إلى البلدان الأوروبية أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب فى جولاتهم التفتيشية كى يتستروا على الفساد. كما تورط الديوان البابوى فى روما فى إصدار صكوك لمنح الغفران من الذنوب (In-dulgentia) للعديدين من النبلاء والأمراء الذين اقترفوا الكبائر، مقابل حفنة من المال، ومنذ أن أعلن البابا أوروبان فى الثانى فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م «الغفران» لكل من يحمل سلاحه ويزحف للقتال فى أرض فلسطين المقدسة، أخذت الدوائر الدينية فى تصنيف هذا الغفران إلى درجتين: غفران للذنوب (Coulpe) وهو فى زعمهم ينجى من نار جهنم؛ ثم غفران من القصاص (Peine) وهو الذى ينجى من المطهر. وبذلك صارت تجارة صكوك الغفران تجارة رائجة أثرى منها البابا وكبار رجال الدين، حتى صارت أمثولة يتندر بها العام والخاص فى الغرب الفرنجى.

فى أثناء ذلك كانت أوروبا - كما بينا فى الفصول السابقة - تشهد نموا مطردا فى المدن ومولد مجالسها الوطنية أو «القوميونات»، سعيا إلى الاستقلال الذاتى عن سيطرة الأساقفة وأمراء الإقطاع، وفى نفس الوقت تحولت المدارس الكاتدرائية إلى جامعات تلقن طلابها مساقات متنوعة



من الفكر الحر والفلسفة الأرسطية رغم أنف رجال اللاهوت. وسرت فى القوم هنا وهناك روح الغضب والتمرد التى وضحت إرهاصاتها فى آراء بطرس أبيلارد الثورية فى باريس (١٠٧٩-١١٤٢م)، وفى معمل روجر بيكون فى أكسفورد (١٢١١-١٢٩٢م)، وفى صيحات الراهب المستنير إيكهارت فى كولون (١٢٦٠-١٣٧١م)، وفى «الكوميديا الإلهية» لدانتى (١٢٦٥-١٣٢١م)، كذلك أخذت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين وحدادين وغيرها تفرض نفسها فى المدن الجديدة، وتتطلع إلى شىء من العدالة الاجتماعية.

الأطهار:

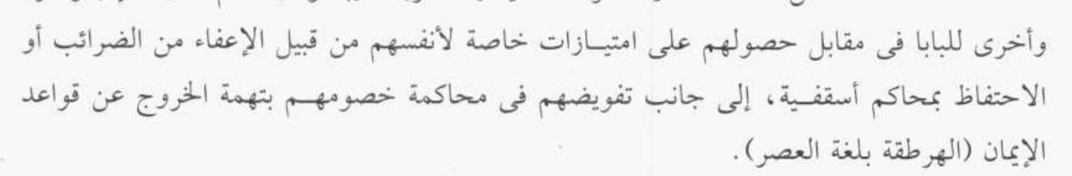
وقد نتج عن هذه العوامل جميعا أن سرت موجات غضب جارف ضد تعنت وجمود الكنيسة الرومانية، وشمل الغضب ربوع البلقان وشمال إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا وبلاد الراين والأراضى الواطئة وأواسط ألمانيا من كولون حتى جولزار. وعرف هؤلاء المتمردون باسم «الأطهار» (Katharoi)، وهى كلمة يونانية الجذور، وتعنى هؤلاء القوم الذين يحيون حياة زاهدة على شاكلة المؤمنين البسطاء الباكرين. وأفكار هؤلاء «الأطهار» خليط من البوذية والمانوية والمسيحية فى ماعون واحد. وهم يعتقدون بثنائية الوجود؛ فهناك عالم الروح وهو الخير كله، وعالم الجسد وهو الشر بعينه. كما أنهم يؤمنون بتناسخ الأرواح، ولكنهم لا يقيمون وزنا للمؤسسات الدينية وكهنتها، فهم لا يقبلون أوصياء عليهم فى علاقتهم مع الخالق، كما أنهم ينبذون الأيقونات (الصور والتماثيل) ويلعنون صكوك الغفران.


بيع صكوك الغفران

وعلى الرغم من أن معلوماتنا عن «الأطهار» قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك وسجلات محاكم التفتيش، إلا أن أحدا من هؤلاء الخصوم لا ينكر على تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة، وعدم جزعهم من الحرق بالنار، ولقد بالغت سجلات محاكم التفتيش فى إلصاق الاتهامات بتلك الجماعات، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان،

وبأنهم يمارسـون حرية الجنس؛ ولذا فـقد نعتـوهم «بأتباع لوسـيفـر»، وإخوة «الروح الضالة».

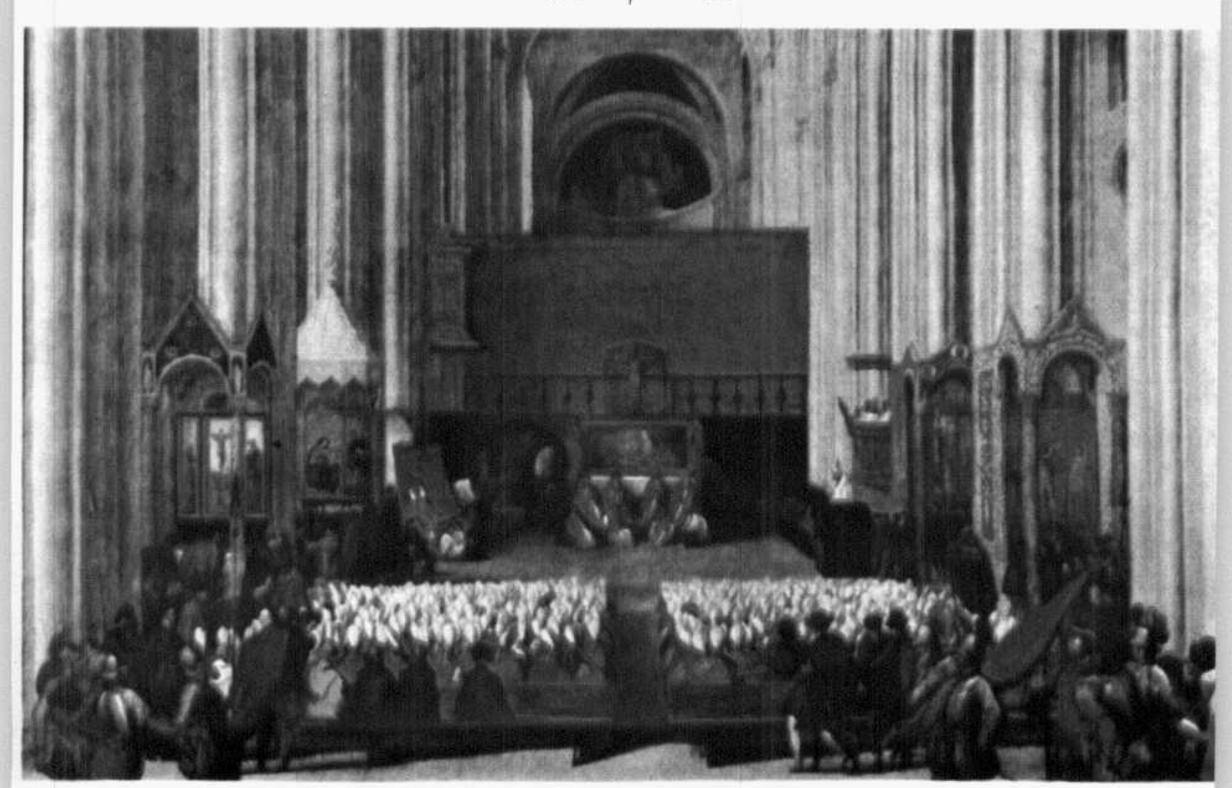
كانت مدن السـهل اللومباردى فى شمـال إيطاليا قد انتعـشت فى القرن الحادى عـشر من اشتغـال أهلها بالتجـارة بين الشرق والغرب. وقد حـفز هذا الرخاء الاقتـصادى وجهاء تلك المدن لإقامـة حكومات جمهورية مـستقلة تنأى بنفسهـا عن الصراع المستعر بين البابا والإمـبراطور الألمانى، ولكن رجال الدين داخل تلك المدن وقـفـوا ضد تيـار الحـرية، وباعوا ولاءهم تـارة للإمبـراطور



وأخرى للبابا فى مقابل حصولهم على امتيـازات خاصة لأنفسهم من قبيل الإعفاء من الضرائب أو الاحتفاظ بمحاكم أسقفـية، إلى جانب تفويضهم فى محاكمة خصومهـم بتهمة الخروج عن قواعد الإيمان (الهرطقة بلغة العصر).

ظهـرت فى مـدينة ميـلان جـماعـة من أبناء الطـبقـات الكادحـة عـرفت باسم «پاترينى» (Patereni) كانت تجاهد لإيجاد حلول لمشكلاتهم الاجتماعـية والاقتصادية. وراح هؤلاء وأمثالهم فى مدن ڤيرونا، وفرارا، ورمـينى، وبراتو، وبياتسنزا، وڤتربو، وفلورنسا يـرفعون شـعارات

تصوير لمحاكم التفتيش الكنسية





وتعاليم «الأطهار». ورغم مطاردة السلطات البابوية والألمانية - بعد صلح مؤقت بين البابا والإمبراطور الألمانى - لهؤلاء الأطهار، ورغم إحراق الكثيرين منهم فى النار، إلا أنهم لم ينثنوا عن عزمهم. وباتت مدينة ميلان ملاذا للفارين من وجه الاضطهاد، سواء فى إيطاليا أو ألمانيا أو فرنسا، ولقد عرف عن «أطهار» ميلان ثقافتهم العالية، إذ درجوا على إرسال أبنائهم النابهين لتلقى الفكر الحر فى جماعة باريس ليستعينوا بسلاح العلم فى الدفاع عن معتقداتهم.

أرنولد من برسيكيا:

وقد برز من بين هؤلاء النابهين ثائر مرموق هو أرنولد من برسيكيا، الذى سافر إلى باريس ودرس على يد أستاذ عرف بثوريته وفكره الحر وهو بطرس أبيلارد، فتشرب أرنولد من أستاذه الأفكار الحرة، سواء فى اللاهوت أو فى فروع الفلسفة المختلفة. وبعد الانتهاء من دراسته فى باريس عاد أرنولد إلى موطنه الأصلى فى الشمال الإيطالى، وانخرط فى سلك الكهنوت.

ومن موقعه هذا راح يجاهر بآرائه الإصلاحية؛ فقد أعلن أن امتلاك رجال الدين للملكيات خاصة إنما هو إثم كبير لا يتفق مع بساطة الرعاة الزاهدين. ولقد لقى هذا الكلام قبولا طيبا لدى الأهلين الذين كانوا يتندرون بحالة الرغد التى كان يحياها كبار رجال الدين كالأمراء.

أسرعت البابوية للإيقاع بهذا الثائر، ففى المجمع اللاتيرانى الذى انعقد سنة ١١٣٩م، تقرر إدانة أرنولد وعزله من سلك الكهنوت ثم طرده إلى خارج إيطاليا.

وهرب أرنولد إلى باريس ليحتمى تحت مظلة أستاذه أبيلارد.

وفى أثناء غيابه فى فرنسا كان أهل إيطاليا يتغنون فى الطرقات بمواعظه، حتى وصلت أقواله إلى قلب روما نفسها. وهبَّ أهل روما ثائرين يطالبون بمصادرة أملاك البابوية الشاسعة وبإقامة قوميون لمدينة روما لإعلان استقلالها كسائر مدن الشمال الإيطالى.

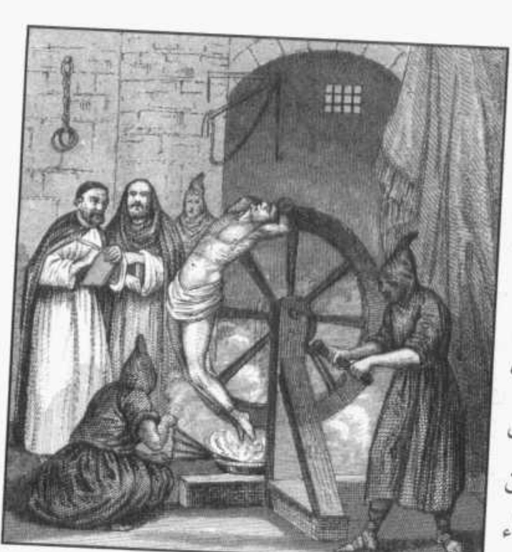
فى أثناء ذلك كان البابا قد أصدر قرارا بالقبض على أرنولد وأستاذه أبيلارد وبإحراق كتبهما جميعا، وفى حين أن الأستاذ قد امتثل لحكم البابا وتراجع عن مواقفه الثورية الإصلاحية، بقى تلميذه صلبا لا يتزعزع. وبضغط من البابا قام الملك الفرنسى بطرد أرنولد من باريس، فقصد منها إلى ألمانيا ثم سويسرا، وأخيرا عاد إلى موطنه الأصلى فى إيطاليا. وتجمع «أطهار» لومبارديا حول أرنولد، وراح هو يخطب فيهم، مهاجما حياة البابا وكبار رجال الدين الرغدة من مال حرام، كما وصف البابوية بألفاظ جارحة ونابية تجاوزت حدود الكياسة.



وعند هذا الحد التفت البابا هادريان الرابع إلى عدوه اللدود فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وعقد معه صلحا، ثم طلب منه القضاء على أرنولد. وبالفعل لبى الإمبراطور رجاء البابا، فقاد حملة بنفسه سنة ١١٥٥م هبط بها من وراء جبال الألب على الشمال الإيطالى، وألقى القبض على أرنولد، وأمر بشنقه، ثم أُحْرِقَ جسده وذُرَّ رماده فى نهر التيبر. وفى مقابل هذه المذبحة الظالمة كافأ البابا هادريان حليفه بربروسا بأن قام بتتويجه إمبراطورا للرومان فى حفل مهيب فى روما.

انتقلت آراء أرنولد من إيطاليا إلى فرنسا، وقد أفاق أهل الجنوب الفرنسى بوجه خاص من غيبتهم بعد أن تبين لهم أن الحروب الصليبية التى كانت تروج لها البابوية منذ أواخر القرن الحادى عشر كانت خدعة كبرى لتحقيق المآرب الشخصية للبابوية وكبار رجال الإقطاع فى الغرب الأوروبى.

وظهرت سلسلة من الثوار فى الجنوب الفرنسى من أمثال بطرس دى برى الذى انتهى أمره بالاغتيال علانية سنة ١١٣٧م بتحريض من كبار رجال الدين، حتى نصل إلى أبرز هؤلاء الثوار وهو بطرس والدو من أهالى مدينة ليون.


تعذيب المتهمين لأخذ اعترافاتهم فى الكنيسة

بطرس والدو:

كان والدو فى الأصل تاجرا ثريا، كوَّن ثروة طائلة من عمليات الربا. وذات يوم وهو فى الطريق صادف واحدا من الشعراء الجوالين ينشد سيرة واحد من الزهاد القدامى اسمه ألكسيس، الذى كان نبيلا رومانيا واسع الثراء، ثم تخلى فجأة عن قصوره وضياعه وأعتق عبيده وسلك درب الزهاد، ثم راح يطوف بلدان أوروبا يقتات على التسول وخبز «المسكنة» حسبما تقول الرواية.

وقد لمست كلمات الشاعر شغاف قلب صاحبنا والدو، وقرر أن يسلك نفس الدرب الذى اختاره ألكسيس الزاهد، فقفل عائدًا إلى داره واستدعى زوجته وخيرها بين أمرين: إما رفقته على درب الفقر أو ميراث ثروته، وكان طبيعيا أن تؤثر الزوجة ميراثه الضخم، ولكن والدو أخذ فى توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين، كما ردَّ إلى كل من تقاضى منه ربا حقه، معلنا ندمه

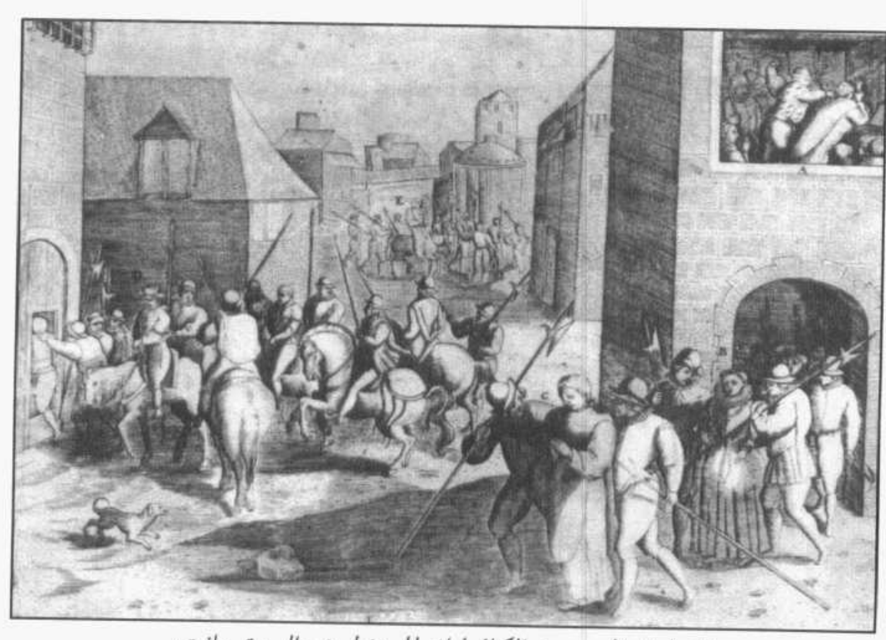
وتوبته، وهكذا قـضى والدو على كل ما كـان يملكه من مال ومـتاع، ثم ارتدى مسوح النسك وأخذ يطرق الأبواب يشحذ كسرة من الخبز يقتات عليها.

جن جنون الزوجـة، فهرعت إلى أسـقف ليون تشكو إليـه حال زوجـها وتطلب منه أن «يرده إلى صـوابه»، ولكن والدو مضى فى طريقـه لا يلوى على شىء، وأخـذ يطوف القرى والكـفور يعظ الناس بحيـاة الزهد، وتزاحم الخلق يحـملقـون فى هذا التـاجـر الغنى الذى وزع كل ثروته على الـفقـراء، وتحـول الكثيرون إلى أتباع له لا يفارقونه.



الألبجنزيون:

وتجمع أتباع والدو فى مدينة ألبى (Albi) فى الجنوب الفرنسى واتخذوها مركزا لنشاطهم، ومن هذه المدينة اشـتق اسمـهم الجديد «الألبـجنزيين» (ألبنوا Albigenois). وسرت فى الجنوب الفرنسى موجة عارمة تطالب بالانعـتاق من أغلال الإقطاع وتزمت رجال الدين، وراحوا يضربون المثل للعام والخاص بسلوكهم البسيط؛ فهم يضعون مـا يملكون مشاركة أمام أفراد جماعتهم، لكل نصـيب كنصيب الآخـر، وقد تمسك الجـميع بقـواعد الزهـد والطهارة، فى حـديثهم ومـسكنهم وملبسهم، وهم لا يكذبون ولا يحلفون، ولا يقبلون العمل بالتـجارة خوفا من شبهة ربح حرام،



اضطهاد المسيحين الكاثوليك للبيزنطيين والبروتستانت

وإنما يعـملون فى صناعة الأحـذية وإصـلاحهـا. ولا يفرطون فى الطعـام ولا يترددون على الحانات، بل يقضون أوقات فراغهم فى المطالعة والدرس.

ولقد أثار مـسلكهم الحسن إعجـاب معاصـريهم فأطلقوا عليـهم «القوم الطيبين» (Bos homes)، وازدادت أعداد مريديهم يومًا بعد يوم.

شعرت الكنيـسة الرومانية وتوابعـها فى فرنسا بخطر كـبير يتهدد كـيانها وهرمها الكهنوتى. ولم تفلح الأسلحة البابوية التقليدية من لعنة وحرمان وقطع ضد خصومها فى إيقاف تيار الثورة. ولما تبين للبابوية عدم جدوى هذه السبل، أصدرت أوامرها إلى محاكم التفتيش لمحاكمـة هؤلاء «الأطهار» بتهمة الهرطقة ثم إحراقهم بالنار، ومن خطط الكنيسة الرومانية أيضا أنها - فى مـرحلة لاحقة - دعت إلى شن «حرب صليبية» ضد هؤلاء الخصوم على أنهم أعداء الإيمان.

وقد أولى البابا أنوسنت الثالث اهتماما خاصا بضرورة قمع جماعة والدو «الألبجنزيين» فى الجنوب الفرنسى، فبدأ بمحاولة كسب رايموند الـسادس كونت تولوز إلى جانبه. ولكن رايموند كان فى الخفاء متـعاطفا مع هذه الجماعات لا حـبا فى مبادئها، وإنما نكاية فى نفـوذ كبار رجال الدين المتعاظم فى ولايته.

ثم التفت البابا إلى فـيليب أغسطس ملك فرنسا لقـيادة «حملة صليبيـة» ضد الألبجنزيين، ولكن فيليب كان منهمكًا فى حربه ضد يوحنا ملك إنجلترا حول دوقية نورمانديا.

وهنا أقدم أنوسنت الثالث على نفس الخطة التى كان قـد دبرها من قبل البابا أوروبان الثانى سنة ١٠٩٥م، فدعـا علانيـة فى ١٥ يناير ١٢٠٨م إلى قيام حـملة صليبيـة ضد هـراطقة الجنوب الفرنسى، ووعـد من يشارك فى هذه الحمـلة بنصيب من الغنائم مما يقع من أيدى الهـراطقة، إلى جانب وعد بغفران الخطايا.

انزعج الملك الفرنسى من خطة البـابا أنوسنت، وكتب إليه ينصحه بضـرورة إصدار البابوية إدانة صريحة للكونت رايموند السادس بالهرطقة أيضا، حتى تكتسب الصليبيـة مشروعيتها وموافقة حامل التاج الفرنسى نفسه.

ثم أوفد البابا مندوبا عنه اسمه بطرس كاستللينو، إلى الجنوب الفرنسى، وهناك أصدر قرارا بالحرمان ضد رايموند السادس ثم قرارا بإباحة نهب أملاكه. ولكن أتباع الكونت رايموند استاءوا من هذا التطاول، وتسلل واحد منهم واغتال المندوب البابوى على مقربة من بلدة سان جيل.



وجن جنون البابا فأهاب من جديد بمشاركة القادرين المخلصين فى حملة صليبية ضد الجنوب الفرنسى والكونت رايموند. وسارع الآلاف من الفرسان المفلسين فى الشمال الفرنسى يلتفون حول اللواء البابوى فى هذه الصليبية أملا فى الحصول على غنيمة دسمة من ثروات جنوبى البلاد.

وأسقط فى يد الكونت رايموند، فبادر يعلن الندم على مقتل المندوب البابوى، وحمل الصليب معلنا أنه سيحارب بنفسه مع جند البابا أنوسنت ضد هراطقة ولايته، ولكن البابا لم يلتفت إلى رايموند وأمر رجال الحملة بغزو أملاك الكونت رايموند.

زحفت الحملة الصليبية بقيادة نبيل من رجالات باريس اسمه سيمون دى مونت فورت إلى جانب المندوب البابوى الجديد أرنولد آمالرك. وأقدم رجال الحملة على مذابح رهيبة فى بلدان بينريه وما جاورها، حيث قتل الصليبيون ١٥,٠٠٠ من الأهلين دفعة واحدة. ثم نهبت وسلبت مدائن كركاسون وناربون دون رحمة أو هوادة. وفى النهاية كافأ المندوب البابوى نفسه بنصيب الأسد فصار كبير أساقفة ناربون، وهى أغنى أسقفيات الجنوب الفرنسى.

استنجد الكونت رايموند بصديقه بطرس ملك أراغون الإسبانية، فقدم الملك على رأس فرقة لمساعدة رايموند. ولكن سيمون دى مونت فورت ألحق الهزيمة بجيش الملك الأراغونى وقتله فى معركة «ميريه» (Muret) سنة ١٢١٣م، ثم انعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥م برئاسة البابا أنوسنت الثالث، وفيه تقرر إدانة رايموند السادس بالهرطقة وضرورة مصادرة أملاكه، كما قرر المجمع أيضا توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون كغنائم على قواد هذه الحملة.

وجد الملك الفرنسى نفسه فى موقف حرج، واضطر على مضض إلى القبول بالأمر الواقع، وإلى أن يقبل سيمون قائد الحملة البابوية كفصل من أفصاله على أن يقطعه مناطق بينريه وتولوز وكركاسون.

أما الكونت رايموند فقد أصيب بيأس قاتل، فترك الأمور إلى ابنه ووريثه رايموند السابع واعتزل الحياة. وكان الوريث شابا جسوراً عنيدا، فجمع رجاله وهجم على مدينة تولوز، وعند أسوارها تمَّ اغتيال سيمون دى مونت فورت.

وضربت الفوضى أطنابها فى الجنوب الفرنسى، وخاصة بعد أن أرسل الملك فيليب ابنه لويس الثامن على رأس جيش لتصفية الموقف المضطرب. ولكن لويس قام بدوره بهجمات ضد



أهالى البلاد وذبح الكثيرين من الأبرياء، ولكن مدينة تولوز ظلت صامدة منيعة فى وجه لويس وفرسان الصليبية الباقين بعد مقتل سيمون.

توفى فيليب أغسطس فخلفه على عـرش فرنسا ابنه لويس الثامن، ثم ما لبث أن توفى البـابا أنوسنت الثـالث (١٢١٦م)، فخلفـه على العرش البـابوى هونوريوس الثـالث، وقرر البابا الجـديد إنزال لعنة الحرمـان على رأس الكونت رايموند السابع، إلى جانب قرار بمصادرة أملاكه وضمها إلى التاج الفرنسى.

وفى مقـابل هذه المكافأة الدسمـة، أخذ الملك لويس الثامن على عـاتقه مهمة تثبيت دعائم محاكم التفـتيش فى جنوب فرنسا للقضـاء على الألبجنزيين. ولكى يبالغ فى إرضاء البابا أصـدر قرارا بإقامة محاكم التـفتيش فى شمال فرنسـا أيضا، وكانت هذه المرة الأولى التى يصدق فيهـا القانون الفرنسى على عقاب «الهراطقـة» بالإحراق بالنار. والغريب فى الأمر أن الكونت رايموند السابع قـد تحول عن موقفـه، وانضم إلى قوى العدوان الصليبى ضـد الألبجنزيين بدلا من الدفاع عنهم، وفى سنة ١٢٢٣م سمح رايموند السابع لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى قلب أراضيه، وسعيـا منه فى كسب ود البابوية قام فيما بعد بإحراق ثمـانين من الألبجنزيين بتهمة الهرطقة فى بلدة آجين (Agen).


حرق محاكم التفتيش للهراطقة



وهكذا تحالف التاج الفرنسى مع الكرسى البابوى فى تلفيق الاتهامات ضد الآلاف من الأطهار الأبرياء ومن المخالفين فى الرأي، فصودرت مقدراتهم وصفى الآخرون جسديا. وقد ظلت هذه الوصمة لصيقة بالملكية الفرنسية حتى قيام ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩م.

ولقى الأطهار فى ألمانيا وأسبانيا نفس المصير الذى لقيه أبناء الجنوب الفرنسى على يد محاكم التفتيش فى مدائن متنر، ومينز، وجبال سوابيا، وستاير فى ألمانيا، وفى قرطبة، وڤالنسيا، وقطالونيا، وسرقوسته فى إسبانيا.

ورغم كل هذه الأساليب من البطش والإرهاب الفكرى لمحاكم التفتيش، إلا أن صوت الثوار فى مختلف أرجاء أوروبا لم يخفت، ولا شك فى أن جماعات الأطهار بمختلف توجهاتها قد مهدت الطريق لظهور رواد الإصلاح الدينى فى أوروبا فى عصر النهضة. وكان على رأس هؤلاء الرواد: جون ويكلف الإنجليزى؛ وجون هس التشيكى، وساڤونا رولا الإيطالى، ثم مارتن لوثر الألمانى.

جون ويكلف:

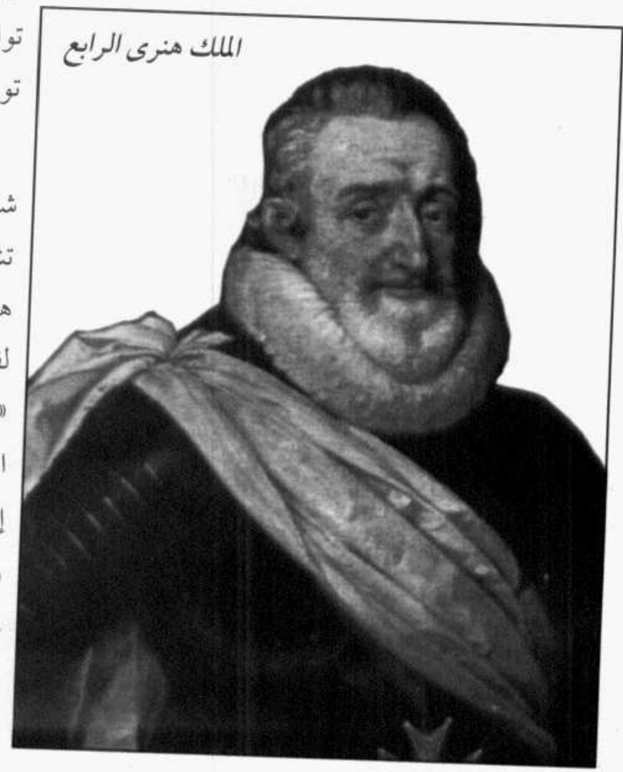
اتخذ جون ويكلف اسم شهرته من اسم بلدته ويكلف فى منطقة يوركشير بإنجلترا، وهى آنذاك جزء من مقاطعة ريتشموند التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر، وقد حصل ويكلف على درجة الدكتوراه فى اللاهوت من كلية باليول بجامعة إكسفورد سنة ١٣٧٢م، وبعد ذلك بعامين أنعم عليه الملك إدوارد الثالث بقطعة أرض فى منطقة لترورز (Lutterworth)، ثم أوفده ضمن بعثة إلى بلدة بروج لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الإنجليزى والبابوية، وأهم تلك الأمور استمرار إدوارد فى عدم دفع ضريبة مالية كانت قد فرضتها البابوية على إنجلترا منذ عهد الملك يوحنا سنة ١٢١٥م، ثم أبطلها الملوك الإنجليزى فيما بعد. ولم تنجح المفاوضات، فعاد ويكلف إلى إكسفورد يعاود محاضراته لطلابه.

وفى رحاب جامعة إكسفورد عكف ويكلف على البحث فى أخطر قضايا العصر، ألا وهى العلاقة بين السلطة الزمنية (الملك) والسلطة الدينية (البابا). ومن الأفكار التى اهتدى إليها كانت فكرة «السيادة» (Dominium)، والرأى عنده أن السيادة أصلا للخالق وحده، أما البشر، سواءً أكانوا علمانيين أم رجال دين، فإنهم عندما يتصرفون فى هذه السيادة فإنهم يقومون بذلك بتكليف من الله، وينبغى أن تكون العدالة رائدهم فى ذلك. ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا «الكرم الإلهى»، متمثلا فى الأرض وما تغله

من خيرات، حيث إن الأرض كلها كانت فى البدء مشاعا بين كافة الناس، وذلك قبل السقطة الكبرى لآدم. والخطيئة - كما يقول ويكلف - هى التى جلبت على البشر آفة الأنانية والملكية الخاصة، ولا ينبغى على رجال الدين أن يكونوا طرفا فى هذا التكالب على تراب الأرض.

رحب النبلاء الإنجليز بآراء ويكلف؛ لأنهم كانوا يتنمرون للسطو على الأراضى الشاسعة التى كانت تمتلكها الكنيسة الإنجليزية. ولكن رجال الدين الإنجليز كتبوا إلى البابا يطلبون العون ضد هذا الإنجليزى المتمرد، ولكن عددا كبيرا من نبلاء إنجلترا وقفوا يبسطون الحماية لشخص ويكلف، إلى أن فاجأ الناس بنظرية جديدة عن «القدرية» معلنًا أن بعض الخلق مقدر لهم الخلاص، فى حين أن البعض الآخر مقدر عليهم «التهلكة»، وبأن المؤسسة البابوية على رأس الهالكين، كذلك جاهر ويكلف بأن المؤسسات الكنسية بتكاليفها الباهظة لا مبرر لقيامها، حيث إن الصلة بين العبد والرب لا تحتاج إلى الأوصياء وتجار الدين من الكهنة.

ونظرًا لخطورة هذه الآراء، انزعج الكثيرون من أصدقاء ويكلف النبلاء وعلى رأسهم دوق لانكستر نفسه الذى أخذ يتنصل من صديقه «المتهور»، وهنا سنحت الفرصة لأساقفة إنجلترا لإدانة ويكلف وطرده من جامعة إكسفورد، وبعدها توارى الرجل فى مزرعته المتواضعة، حيث توفى بعد سنوات قلائل.


الملك هنرى الرابع

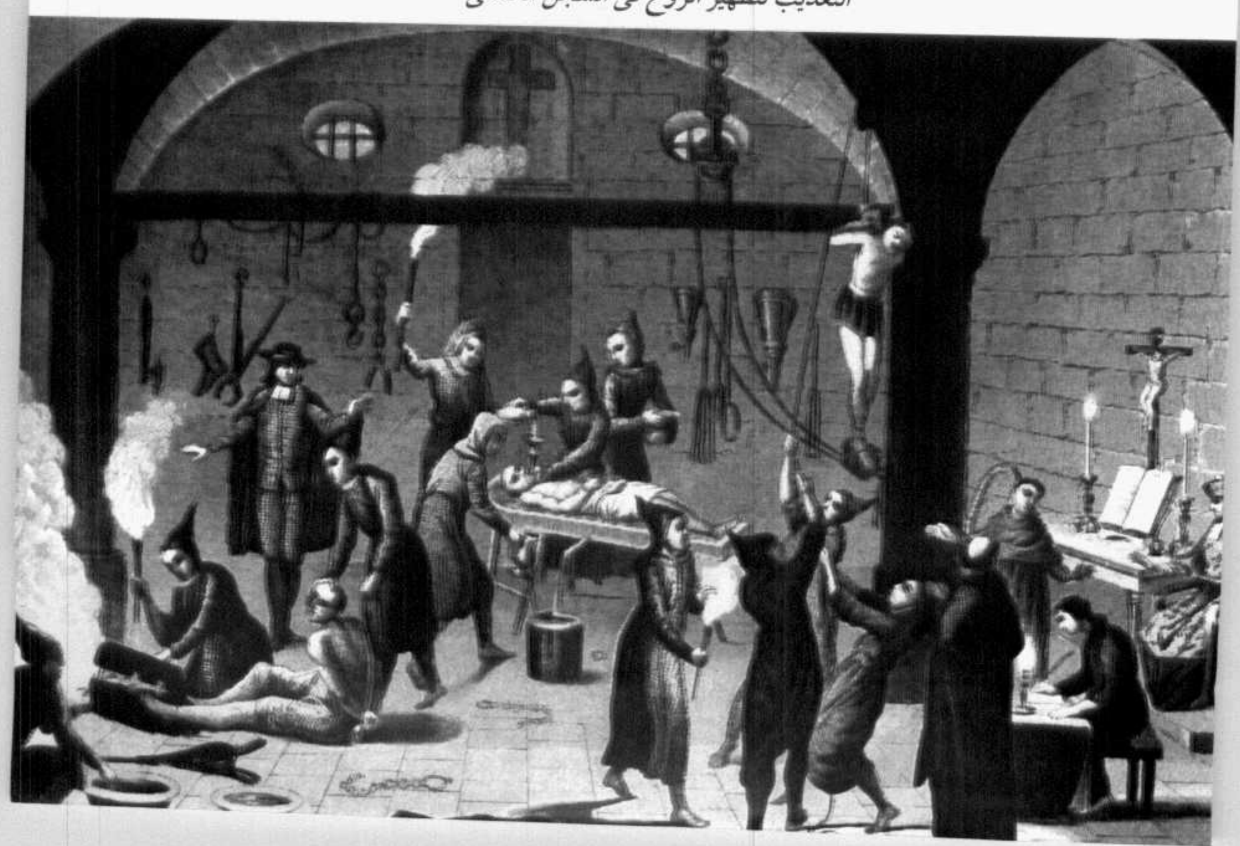
على أن آراء ويكلف لقيت صدى شعبيا واسعا فى إنجلترا، وراح فريق ممن تشيعوا لهذه الآراء يطوفون أرجاء البلاد لنشر هذه الآراء. وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب «لولارد» نظرا لتشابه أفكارهم مع أفكار «اللولارديين» فى الأراضى المنخفضة فى القارة الأوروبية. وصارت «اللولاردية» فى إنجلترا مذهب الكادحين والعمال الساخطين؛ ولذلك فإن الملك ريتشارد الثانى أمر بالقبض على زعمائهم وإيداعهم السجن، وفى عهد الملك هنرى الرابع صدر قرار ملكى يحرم اللولاردية بقوة القانون، كما قُدم نفرٌ من



أتباعـها للمـحاكـمة وتم إحراقـهم بالنار. وسارت الأمـور على هذا المنوال من البطش فى عهد الملك هنرى الخامـس، حتى كانت سنة ١٤١٧م حين قبض على زعيمهم جون أولد كاست ثم أعدم.

انتقلت آراء جون ويكلف من إنجلترا إلى القـارة الأوروبية مع نهاية القرن الرابع عـشر، والذى حـدث أن الأميـر ونسنزلاز أكـبر أبناء الإمـبراطور شـارل الرابع، والذى توج ملكا على بوهيميا (١٣٧٨-١٤١٩م)، قد زوج أخته الأميرة آن للملك الإنجليـزى ريتشـارد الثانى، وقـد اصطحبت الـعروس معـها ضـمن حاشيتها عددا من مـحبى العلم. وفى إنجلترا عكف هؤلاء المستنيرون فى بلاط آن على دراسة آراء جون ويكلف وتحمسوا لما جاء فيها حمـاسا كبيرا، ولما أن عاد واحد منهم يدعى جيروم من إنجلترا إلى براغ، أخذ ينشـر تعاليم ويكلف الثـورية فى أروقة جامـعة براغ، ولقد انزعج المسـئولون فى الجامعة من مسلك جيروم، وقرر مجلس الجامعة بإدانة آراء جون ويكلف برمتها، غير أن فريقا من الدارسين ضرب برأى الجامعة عرض الحـائط، وكان على رأس هؤلاء المصلح التشيكى جون هس (Huss).


التعذيب لتطهير الروح فى السجن الكنسى





جون هس:

ولد هس سنة ١٣٧٠م فى بلدة هوزنيك التشيكية، وحصل على درجتى الليسانس والماجستير فى اللاهوت تباعا (١٣٨٦، ١٣٩٦م). وكان هس شابا متمردا يدعو إلى الإصلاح الدينى بأن يعود كبار الأساقفة والأساقفة بالدين إلى البساطة الأولى كى يقدموا لبسطاء الناس القدوة الحسنة، كما أعلن هس أنه لا يحق للكاهن الخاطئ أن يقود الناس فى الصلاة؛ لأن فاقد الطهر لا يعطيه.

وتحمس القوم لأفكار هس فى أروقة براغ، وغلت المشاعر. ولكن البابا إسكندر الخامس أمر كبير أساقفة براغ بجمع كتب هس وجون ويكلف وإحراقها علنا أمام الناس (١٤١٠م).

وفى سنة ١٤١٢م وقع صدام بين البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرين وبين ملك مدينة نابلى الإيطالية واسمه الأمير لادزلاس. ونظرا لحاجة البابا إلى المال أعلن عن قيام «حملة صليبية» ضد مملكة نابلى، واعدا بغفران الآثام لمن يساهم بالمال لتمويل هذه الحملة. وهكذا اكتملت مهزلة «صكوك الغفران».

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران؛ لأن فردوس النعيم لا يشترى ويباع بالمال الحرام، وقال: إن دل هذا على شىء فهو إنما يشير إلى إفلاس الكنيسة الرومانية ماديا بعد أن أفلست معنويا، والتف الناس حول هس فى غضبته المدوية، ثم أمسك بمكتوب البابا عن بيع صكوك الغفران وأحرقه بالنار.

والواقع أن صورة الكرسى البابوى فى هذا المنعطف من التاريخ كانت قد وصلت إلى الحضيض، فلقد كان ثلاثة بابوات فى آن واحد يتنازعون للجلوس على العرش البابوى فى روما. وقد حدث هذا بينما انعقد مجمع كنسى فى مدينة كونستانس لحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين. ثم وجه المجمع أمرا إلى جون هس بالمثول أمامه ولشرح موقفه وآرائه أمام الإمبراطور الرومانى المقدس سجسموند نفسه الذى كان الرئيس الشرفى لهذا المجمع (نوفمبر ١٤١٤م). والحق أن سجسموند كان حريصا على تهدئة الخواطر فى إمبراطوريته، فبعث من ينصح هس بالقدوم إلى المجمع، مؤكدا له حرصه على أمنه وسلامة حياته، على أن الكرادلة فى مجمع كونستانس اتخذوا قرارا بإدانة هس بسبب آرائه «المنحرفة» ثم ألقوا به فى السجن. سارع سجسموند إلى بلدة كونستانس وأمر بإطلاق سراح هس من السجن، ولكن مستشاريه نصحوه بإعادته إلى زنزانته حفاظا على وحدة العقيدة تحت لوائه الإمبراطورى.



مجمع كونستانس:

ثم استؤنفت جلسات مـجمع كونستانس برئاسة الإمبراطور سـجسموند، وتقرر خلـع البابا يوحنا الثـالث والعشـرين (٢٩ مايو ١٤١٥م)، وتعيـين مارتن الخامس، ثم قرر المجمع استدعاء جـون هس مرة أخرى للمثول أمام المجمع فى حضور الإمبراطور نفسه، وكان الكرادلة فى المجمع قد دبروا لهس شركا شيطانيا للإيقاع به، فـفى جلسة النظر فى أمـره - أمام الإمبراطـور - سأله الكرادلة عن رأيه فيمن يرتكب معصيـة من رجال الدين، فرد هس بأن هذا العاصى يستوجب العزل من منصبه الدينى. ثم سألوه عـمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء أو الملوك أو الأباطرة، فرد الرجل بأن الأمير العاصى يستوجب بالمثل الخلع عن العرش.

وهنا شعر الإمبراطور سجسموند بالحرج الشديد أمام أعضاء المجمع، ففتر حماسه لشخص هس وتخلى عن حمايتـه تماما. وفى اليوم التالى لهذا المشـهد طرح مصير جـون هس للتصويت،


سافونا رولا - نحت بارز


حرق «جون هس»

فكان الإمبراطور سـجسموند أول من صوت بـالحكم بإعدام جون هس. وفى يوليو ١٤١٥م، اقتيد جون هس إلى ركن عند أسوار مدينة كونستانس حيث تم إحراقه بالنار.

ولكن إحراق جسد هس لم يحرق أفـكاره، بل إنها ازدادت اشتعالا فى وجدان الشعوب السلاڤية، ومعهـا مشاعر الكره ضد الألمان وسـيدهم الغادر سجسـموند. وتألف حزب من أتباع جون هس بزعـامة جون زسكا وأبناء براغ «الأحرار» (١٤٢٠م) يناهضـون حكم سجسـموند فى بوهيمـيا، فمـا كان من سجسموند إلا أنه عقد حلفا مع البابا الجديد مـارتن الخامس لشن حملات صليبية ضد أتباع هس فى بوهيمـيا، وتوالت الحمـلات من سنة ١٤٢٠م حتى ١٤٢٧م، تقتل وتنهب أهل التـشيك دون هوادة، وقد لمع فى كـفاح التشيك ضـد الصليبيـة البابوية الألمانية اسم البطل القـومى جون زسكا الذى أوصى وهو يحتضـر فى ساحة القتـال أن يصنع رفاقه من جلده «طبلة» يقرعـون بها لإيقاظ مشاعر الثوار ضد الألمان والبابا.

ساڤونا رولا:

أما ساڤونا رولا فكان من شباب مدينة فلورنسا الإيطالية المعارضين لبيت مديتشى الحاكم، وقد شارك فى الثورة ضدهم والتى انتهت بفرار آخرهم پدرو ميدتشى إلى مدينة البندقية فى التاسع عشر من نوفمبر ١٤٩٤م، بعد حكم لفلورنسا دام ستين عاما.

وبعدها نصح ساڤونا الفلورنسيين بانتخـاب مجلس يضم ممثلين عن جميع فـئات الشعب ليسير دفة الأمـور، دون الحاجة إلى الأمراء (١٤٩٥). وكان ساڤونا وأتباعه متعاطفين مع الملكية الفرنسية فى صراعها مع البابا إسكندر السادس بورجيا وأصهاره فى مملكة نابلى.

ولهذا فـإن البابا كان يتـحين الفرصة للقـضاء على هذا الثائر المتـمرد ضد البـابوية، فاتهم ساڤونا بخيـانة الوطن بتأييـده الملك الفرنسـى الدخيل فى أرض إيطاليـا، ثم أرسل إلى أساقـفة فلورنسا أمرًا بأن يمنعوا ساڤونا من الوعظ بالناس.

امتـثل ساڤـونا للأمـر وأناب عنه واحدا من تلامـيذه للقـيام بالوعظ بدلا منه، حـتى تمر العاصفة بسلام، على أنه فى عـيد ميلاد سنة ١٤٩٧م، خرج ساڤونا من صمته واعتلى المنبر فى كاتدرائية سـان مارك وصرخ قائلا بأن صـوتا سماويا قد طلب إليـه ألا ينصاع لأمر أرضى، وألا يرضخ لقرار كاهن فاسد (إسكندر السادس) معروف بالانحلال والشذوذ والغدر.

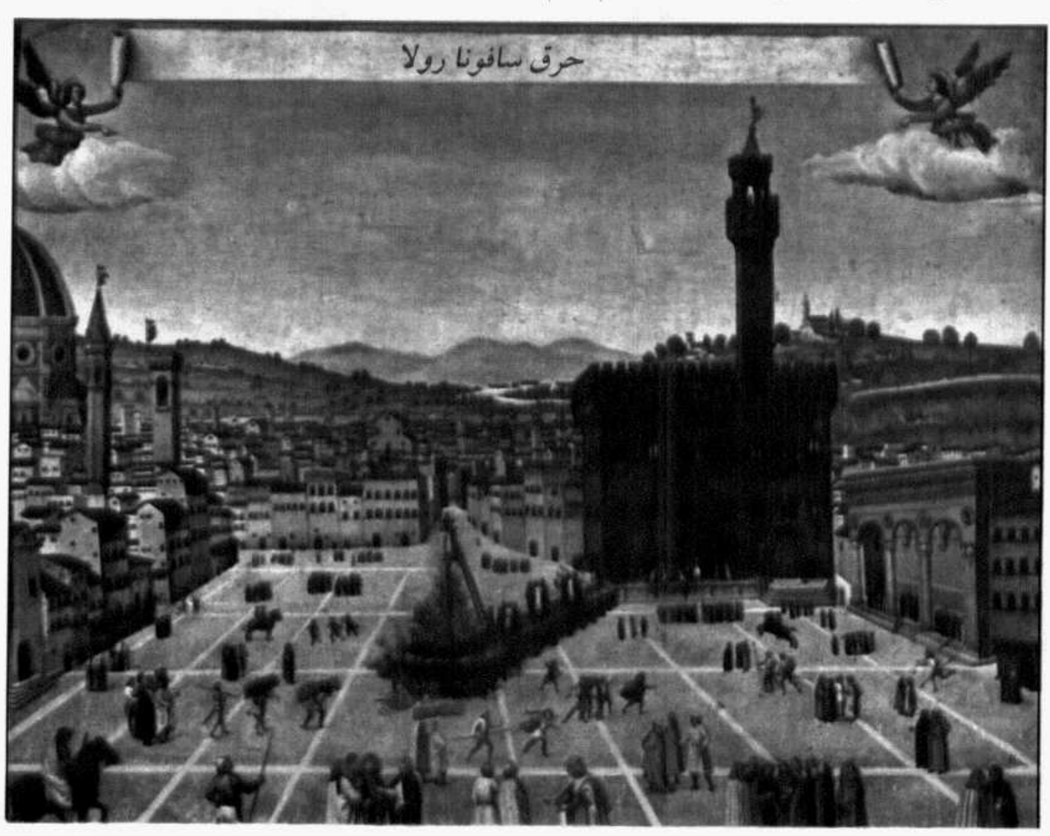
أمام هذا التحدى بعث البابا إسكندر السادس براهب يدعى فرانسيس لكى يتصدى لساڤونا رولا فى فلورنسا، وكان فـرانسيس خطيبا مفوها اجـتذب إليه عددا كبيـرا من شعب فلورنسا، ثم أعلن على الناس أنه يقبل أن يُحكَّم بينـه وبين سافونا بالنار، كى يظهر الحق ويحـترق الدجال من

المحتكمين. ولم يكن أمام سافونا رولا إلا أن يقبل هذا التحدى حفاظا على شعبيته، وتحمس الناس فى المدينة لهذا الحدث المثير، وخاصة بعد أن وافقت دار السيادة فى فلورنسا والبابوية أيضا على المضى فى التحكيم بالنار، وحدد لذلك يوم السابع من أبريل لسنة ١٤٩٨م.

وفى اليوم المحدد نصبت مشنقة فى الميدان العام للمدينة، ثم أعدت أخشاب ممر التحكيم بالنار على صفين لمسافة ثمانين قدما، وكان المخطط كالعادة أن يمر الراهبان المحكمان داخل هذا الممر وسط الأخشاب المشتعلة، ومن يخرج من الممر النارى سالما فهو على حق فيما يقول، وأما من يحترق جسده بالنار ويتعثر يكون مذنبا يستحق الشنق.

واكتظت الساحة بالمتفرجين من كل صوب فى مدينة فلورنسا، وفتح الأهلون أصحاب المنازل المطلة على الساحة نوافذهم لمتابعة التحكيم فى لهف زائد، ثم وصل أتباع كل من الراهبين المحتكمين، كل فريق ينشد أناشيده الخاصة ويدعو لصاحبه بسلامة الخروج سالما من النار.

على أن خلافا نشب بين الفريقين حول بعض الطقوس السابقة لإشعال النار فى الأخشاب، وتبادل الفريقان الاتهام ثم السباب والشتائم، حتى ضاق الناس بالفريقين من طول الانتظار، فأخذوا فى الانصراف عن ساحة التحكيم، ثم حدث أن انهمر مطر غزير فأفسد كومات الخشب



والحطب المعدة للمحرقة. وأصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة؛ لأن المعجزة التى كان ساڤونا رولا قد وعدهم بتحقيقها يوم التحكيم لم تتحقق، فظنوا أنه كان يخادعهم ويستخف بعقولهم، وبذلك فقد ساڤونا شعبيته السابقة، بفعل مكيدة البابا إسكندر السادس وأتباعه.

كان ساڤونا بعد هطول المطر قد اختبأ مع اثنين من أتباعه وهما دومنيكو بونيو تشينو، وسلڤستر ماروڤى، وهجم أعداؤه على مخبئه وقبضوا عليه وعلى تابعيه المخلصين وأودعوهم السجن. ثم أرسل البابا إسكندر السادس أوامره بتقديم ساڤونا وصاحبيه للمحاكمة أمام محكمة التفتيش، وفى المحاكمات تعرض ساڤونا ورفيقاه لإهانات بالغة ولتعذيب شديد، ثم حكم على الثلاثة بالإعدام حرقا بالنار.

وفى الثالث والعشرين من مايو ١٤٩٨م، تمَّ إحراق ساڤونا ورفيقيه فى نفس البقعة التى كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهار معجزة ساڤونا الخارقة. وهكذا كتبت البابوية فصلا دمويا جديدا من فصول تصفية المصلحين الثائرين.



مارتن لوثر

لم تكن المشنقة ولا كانت النار التى أحرقت الأطهار والثوار لتوقف تيار التاريخ، فقد بدأت الطبقات الكادحة تثور فى كل مكان فى أوروبا ضد أمراء الإقطاع والكنيسة الرومانية. وجاءت الضربة الكبرى التى زلزلت بقايا قلاع الإقطاع الدينى من حيث لا يحتسب، فلقد جاءت على يد ابن لفلاح بسيط من أهالى ثورنجيا الألمانية، وذلكم هو المصلح الثائر مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م).

مارتن لوثر:

بدأ مارتن لوثر حياته فى سلك الديرية الأغسطينية فى بلدة إرفورت وهو فى الثانية والعشرين من عمره (١٥٠٥م)، ثم ما لبث أن دهمه شعور مرير من الضيق والكآبة لأسباب لم يفصح عنها لأحد، ففرض على نفسه نظاما صارما من الصوم والسهر يغالب به شيطان الليالى



الطويلة، ولكن هذا كله لم ينجح فى شفاء روحه القلـقة ونفسه المضطربة. وقد وصف لوثر هذه اللحظات القاتمة من حياته فيما بعد بقوله: «لو أن راهبا قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقير جسده وشهواته، لكنت أنا أول الداخلين».

وفى هذه المرحلة من «الشقاء» تكشفت لمارتن لوثر فكرة مـخيفة، إذ أخذ يحدث نفسـه بأن السمـاء لو أنها وجدت فـى العذاب الذى يكابده المرء سبـيلا للخلاص، لكانت مثل حكام أوروبا المستـبدين الذين يتلذذون بآلام رعاياهم من الأقنان والعبيد. ولكن هذا الخاطر «الشيطانى» أصاب لوثر بفزع شديد خوفا من التردى فى شباك الشك والضلال.

وبعدها انكب على تحـليل ما ورد فى «اعترافـات» القديس أغسطيـنوس وفى «مدينة الله»، لعله يهدأ روحـا. وبالفعل أتت المراجـعة المتأنية لـهذين العملين العـملاقين أكلها، إذ شـعر لوثر بارتياح داخلى، وأخذت روحه المؤرقة تستشـعر طعم السعادة، وبعد أن امتلأت الروح بزاد نظيف صرخ لوثر من أعمـاقه قائلا: «إن الإيمان الخالص والكلى هو درب السـعادة للروح الشاردة، وإن الرحمـة الإلهية هى الشـفاء الكامل». ومن هذه التجـربة الذاتية خلص لوثر إلى أن التـوبة ليست بإيقاع العذاب على الجسد أو العقل، وإنما هى تتأتى بانفتاح شغاف القلب كى تتلقى نسمة الرحمة الإلهية.

وعليه راح لوثر ينادى بأن «الغفران» (Indulgentia) هبة الله لخليقـته، ولا يمكن بحال أن تشتـرى هذه الهبة أو تباع، كـما يفعل البـابوات والكرادلة والأساقفـة. وأتبع هذا برأيه فى أن ما تروج له الكنيـسة الرومـانيـة من حق فى الحل والربط على الأرض، أمـور غريبـة على صحـيح الإيمان.

وفى سنة ١٥٠٨م اضطلع مـارتن لوثر بالتـدريس فى جامـعـة وتنبرج، التى كـان الأميـر «الحكيم» فردريك قد أسسها منذ فترة وجيزة لخدمة العلم ومحبى العلوم. وأقبل الطلاب على لوثر المحاضر الثائر فى حماس منقطع النظير، حتى سطع اسمه فى كل الآفاق.

وفى سنة ١٥١٠م قـام لوثر بزيارة إلى مديـنة روما، وفـيهـا ازدادت شكوكه فى الطقـوس الرومانية المعـقدة التى لا يفهمـهـا بسطاء الناس من المصلين، كما ازداد سـخطه على الجالس على العرش البابوى، ممسكا فى يده اليمنى بالسوط وبيده اليسرى لعنة «الحرمان». ويقول لوثر: إنه راح يفتش فى جنبات روما عن خيط الإيمان البسـيط الفطرى، فلم يجد له أثرا، فقفَل راجعا إلى بلاده وهو يُتمتم: «لا خلاص إلا من الداخل، ودون وصاية من كهانة».



ولما أن وصل لوثر إلى بلدته وتنبرج فوجئ بوجـود مندوب بابوى اسمه تتزال يبـيع «صكوك الغفـران» لكل من يتبرع بالمال لاسـتكمال بناء كنيـسة فى روما، وذلك بتكليف من البابا ليو العاشر. ولم يترك لوثر المسألة تمر، فتصدى للمندوب البابوى يصيح بأن هذا الذى يفعله اتجارٌ لا يليق بالدين، بل هو ابتزاز الأموال من السذج من الناس.

وفى ١٧ أكتوبر لسـنة ١٥١٧م نشر لوثر بيانا من خمس وتسـعين حجة يهاجم بها «صكوك الغفران»، وتحدى من يرغب فى مجادلته فى رأيه فى حوار علنى، كما علق هذه الحجج على بوابة كنيسة وتنبرج ليطالعها الخاص والعام.

وجدت الكنيسة الرومـانية هذه المرة أنها أمام خصم عنيد، فـدعت إلى عقد مجلس الدياط (Diet) الألمانى فى أوجزبرج لمناقشة أمر لوثر (١٥١٨م). واحتدم النقاش طويلا داخل المجلس بين ممثلى البابوية من طرف وبين لوثر وأشياعه من طرف آخر. وفى النهاية قرر الدياط أن يسحب لوثر مقولاته عن صكوك الغفران وألا يعود للخوض فى هذا الأمر مرة أخرى.

ولكن أنصار لوثر (اللوثريين) لم يقبلوا بقرار الدياط، وانبرى عدد وافرٌ من المستنيرين الألمان للدفاع عن آراء لوثر؛ من أمثال المفكر أولرخ ڤون هوتن الذى نشر مقالا سنة ١٥١٩م قال فيه:

«إن روما تعتمد فى مزاعمها على ثلاثة أوهام: الإمارة البابوية، وعظام القديسين، وصكوك الغفران، وهى تخشى ثلاثة حقائق: المجـامع الكنسية، ولفظة الإصلاح، ويقظة الشعب الألمانى، وهى تجرم ثلاثة فضائل: الزهد، وبساطة الدين، وكلمة الحق».

وفى سنة ١٥٢٠م نشر لوثر رسالة مـوجهة إلى الأمة الألمانية باللسان الألمانى، هـاجم فيها الكهانة ووصاية رجـال الدين على ضمائر الناس، كما ندد بالتبـتل (عدم زواج رجال الدين)، ثم وجه رسـالة أخرى إلى البـابا ليو العـاشر نفسـه، هاجم فيـها فسـاد كبار رجـال الدين وأسلوب معيشتهم كالأمراء فى القصور «كـما كانت تفعل بابل وسدوم فى القديم»، مهددا فى نهاية الرسالة بأنه سوف يظل يقاوم هذه المظالم ما دامت حرارة الإيمان تدب فى قلبه.

وجاء رد الفعل سـريعا فى يوليو ١٥٢٠م فى شكل قرار بالحـرمان ضد لوثر؛ لأنه «هرطيق خطير»، وأمسك لوثر بقرار الحرمان (Excommunication) وأشعل فيه النار أمام جـماهير غفيرة فى بلدة وتنبرج، وذلك فى العاشر من ديسمبر لسنة ١٥٢٠م.

وبذلك أشعل لوثر عـاصفة مـدوية فى ألمانيا، قدر لـها أن تنتشـر فى كل أنحاء أوروبا كى تقتلع المؤسسة الرومـانية من جذورها. ومع هذه الثورة يبدأ عصـر «البروتستانت» (Protestants)



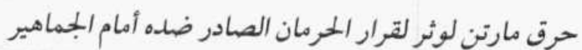
أى «المحتجين» لينهى عصر سيطرة الكنيسة الرومانية ولغتها اللاتينية على كل أصقاع أوروبا.

دعا البابا ليو العاشر الإمبراطور شارل الخامس لأن يعقد مجلس الدياط فى مدينة ورمز لاتخاذ موقف حاسم من لوثر وأتباعه. ولكن الإمبراطور ورجاله المقربين كانوا مدركين للمدى الذى باتت اللوثرية تتمتع به فى قلوب الشعب الألمانى، ويتضح ذلك من تقرير بعث به المندوب البابوى «ألياندر» فى ألمانيا حيث يقول:

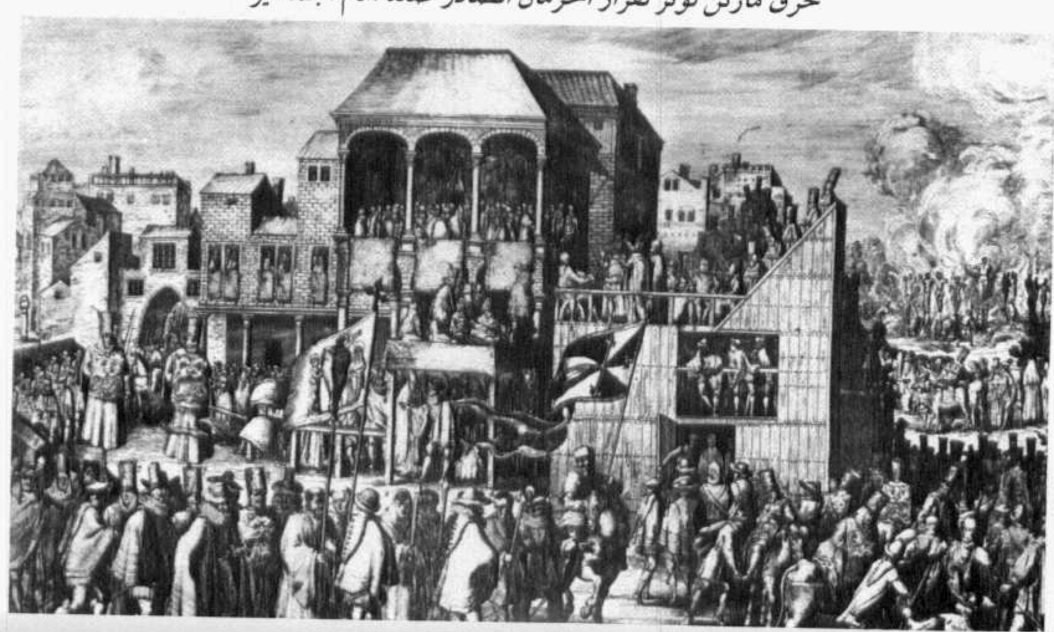
«إن تسعة أعشار الألمان يهتفون للوثر، وإن العشر الباقى، وإن كانوا لا يهتمون باللوثرية، إلا أنهم يهتفون بسقوط البابوية».

قرر المجتمعون فى دياط ورمز (١٥٢١م) استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه، ومع أن البابا قد احتج على دعوته، إلا أن الإمبراطور شارل الخامس أصر على ظهور لوثر أمام المجلس. وحضر لوثر إلى مدينة ورمز، ووقف فى مجلس الدياط شامخا صلبا لا يلين يدافع عن آرائه بحجج بليغة قوية، وبلغ به الانفعال فصاح قائلا: «لا سلطان أرضى علىَّ فيما يتصل بكلمة الله».

وهنا شعر الإمبراطور بالحرج والغضب، وقرر المجلس إصدار قرار حرمان آخر ضد لوثر، مع إحراق كتبه ومقالاته جميعا. هرب لوثر من المجلس إلى قلعة وارتبورج فى سكسونيا ليستظل بحماية صديقه الأمير فردريك «الحكيم»، ولحسن حظ لوثر انشغل الإمبراطور شارل الخامس فى حروبه فى إسبانيا التى دامت حتى سنة ١٥٢٩م.



حرق مارتن لوثر لقرار الحرمان الصادر ضده أمام الجماهير





وفى خلال تلك السنوات انـتشرت تعاليم مـارتن لوثر فى بلدان أوروبا كالنار فى الهـشيم. ومع أن محاكم التـفتيش أخذت تضـرب اللوثريين بالحديد والنار، إلا أن أصـحابهـا شعروا بأن الأرض أخـذت تهتـز من تحتـهم فى كل مكان.

وعندما قامت محكمة التفتيش فى بروكسل بإحراق راهبين بسبب آرائهما اللوثرية (١٥٢٣م)، حـزن لوثر حزنا شـديدا، فنظم ما عـرف باسم «مزامـير الأحزان» حيث يقول:

«رماد أجسادهم لن يبيد

الريح تحمله من صعيد إلى صعيد

هو ذا الصيف يطل علينا من بعيد

مضى غيمُ الشتاء ووخز الجليد

براعمُ الأزهار تفتحت

تعانق بعطرها وجنة العيد

منْ تعهد عهدا

مات وهو شهيد

كلمةُ الحق تلوح علينا

تبشر بالعهد الجديد».

دخلت اللوثرية فى المرحلة التالية فى صراع مرير مع الإمـبراطور شارل الخامس، وفى نهاية المطاف لم يكن أمام الإمبراطور مناصٌ من الاعتراف بالأمر الواقع، ففى ٢٥ ديسمبر لسنة ١٥٥٥م تمَّ الاعتراف بالبـروتستانتية (اللوثرية)، غيـر أن هذا الاعتراف قد جاء بعد وفـاة البطل لوثر بعشر سنين، وهكذا أشرقت على أوروبا شمس فجر جديد.





- زيغريد هونكه: شمس الله تسطع على أوروبا. ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٦.

1- J. Atkinson: Martin Luter and The Birth of Protestantism. London. 1968.

2- Trenchard Cox: TheRenaissance in Europe (1400 - 1600). 1933.

3- H.A.L. Fisher: A History of Europe. London. 1936.

4- F.A. Gasquet: The Eve of The Reformation. 1905.

5- Niccolo Machiavelli: The Prince (Translated by George Bull). Penguin Books. 1961.

6- R.B. Merriman: The Rise of The Spanish Empire. 1918 - 25.

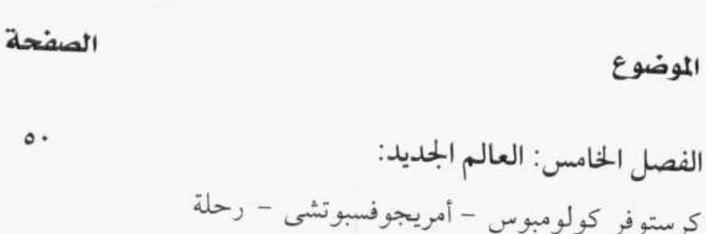
7- E. J. Payne: History of the New World Called America. 1892 - 9.

8- George Sampson: The Concise Cambridge History of English Literature (3rd Edition). Cambridge University Press. 1970.

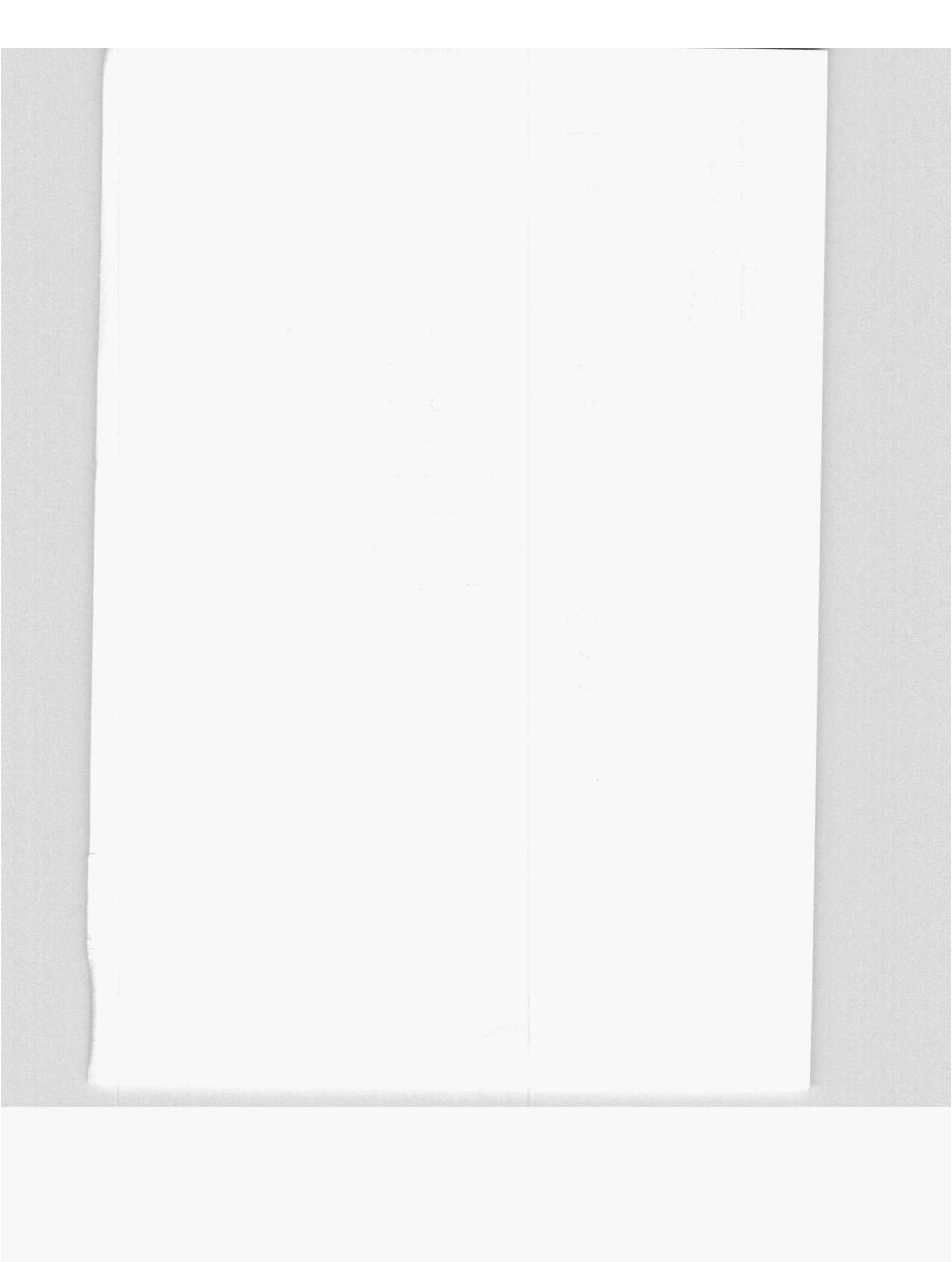

٨٦


محتويات الكتاب





الموضوع	الصفحة





This book dwells upon the transformation that took place in Europe by the end of the Middle Ages. The impact of the Arab - Islamic culture on the mentality of Medieval Europe is equally highlighted, via the translation of the prominent Muslim Works in diverse domains of knowledge.

It was the Italian cities that triggered the transformation towards the humanistic movement and individualism. Many men of letters, artists, and scientists pioneered this movement. Among the renowned names we find Michael Angelo, Roger Bacon, Shakespeare, Gottenberg, and many others.

The work culminates with the religious reformation and the ultimate birth of Protestantism by the great reformer Martin Luther.

Dr. Ishak Ebeid



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

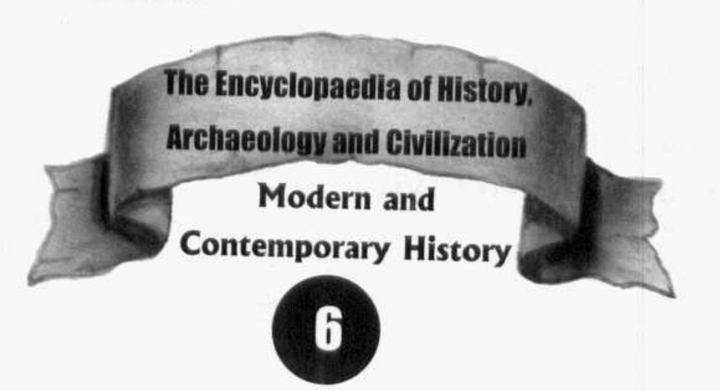
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





The Renaissance of Europe

Dr. Ishak Ebeid

Publisher

Dar Al-Fikr Al-Arabi

94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo

tel : 2752794 . Fax : 2752735

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com